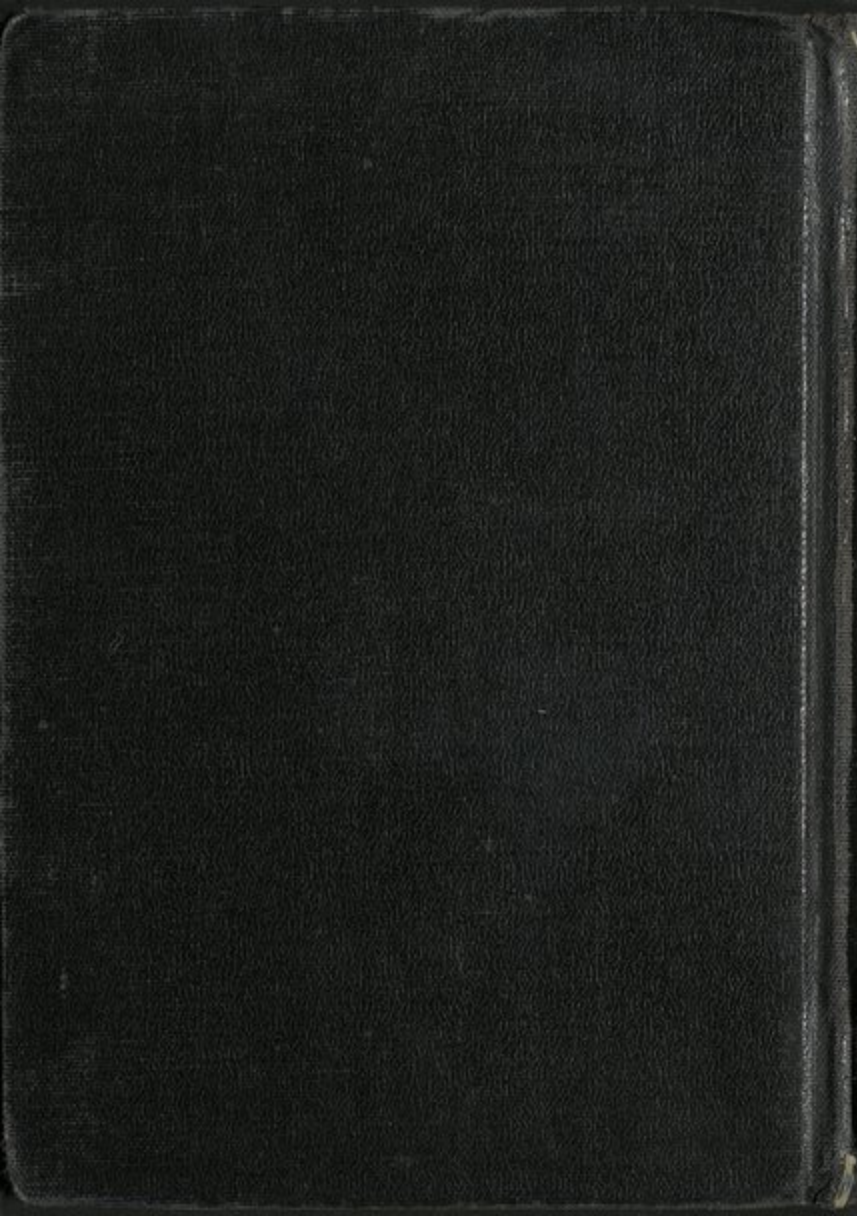
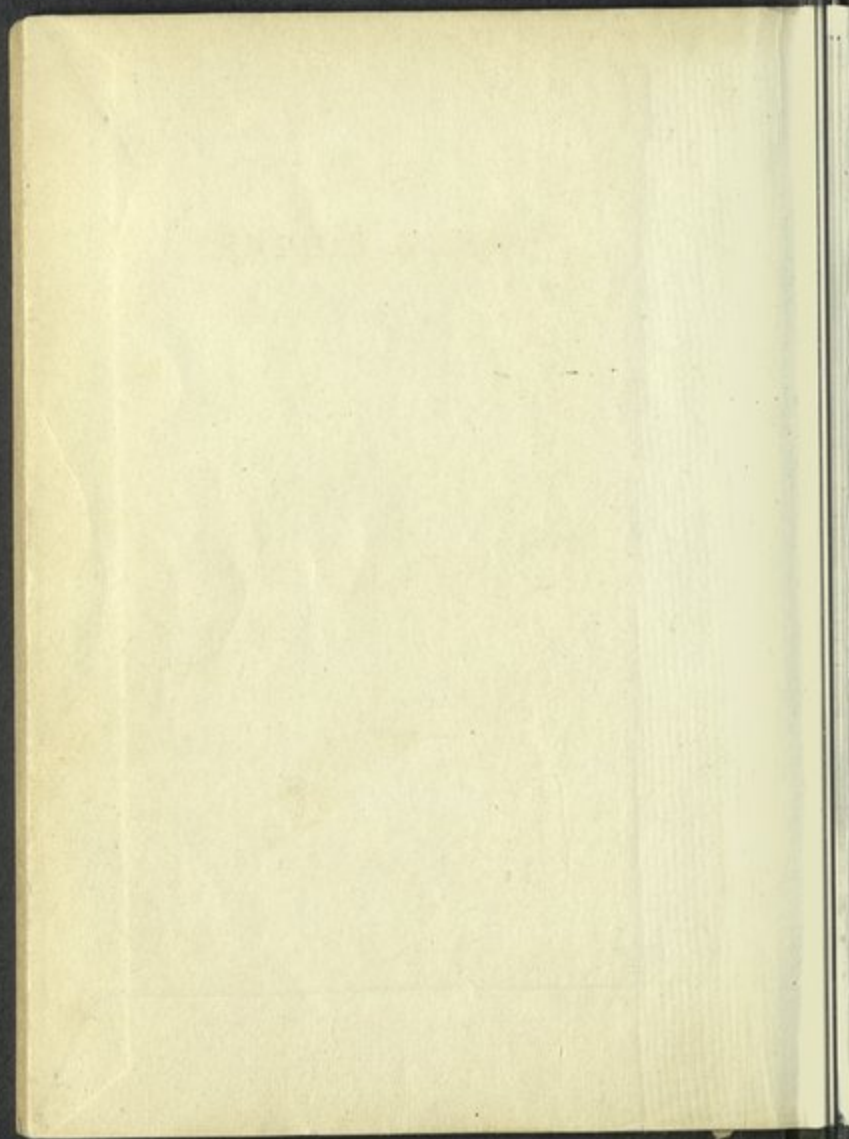
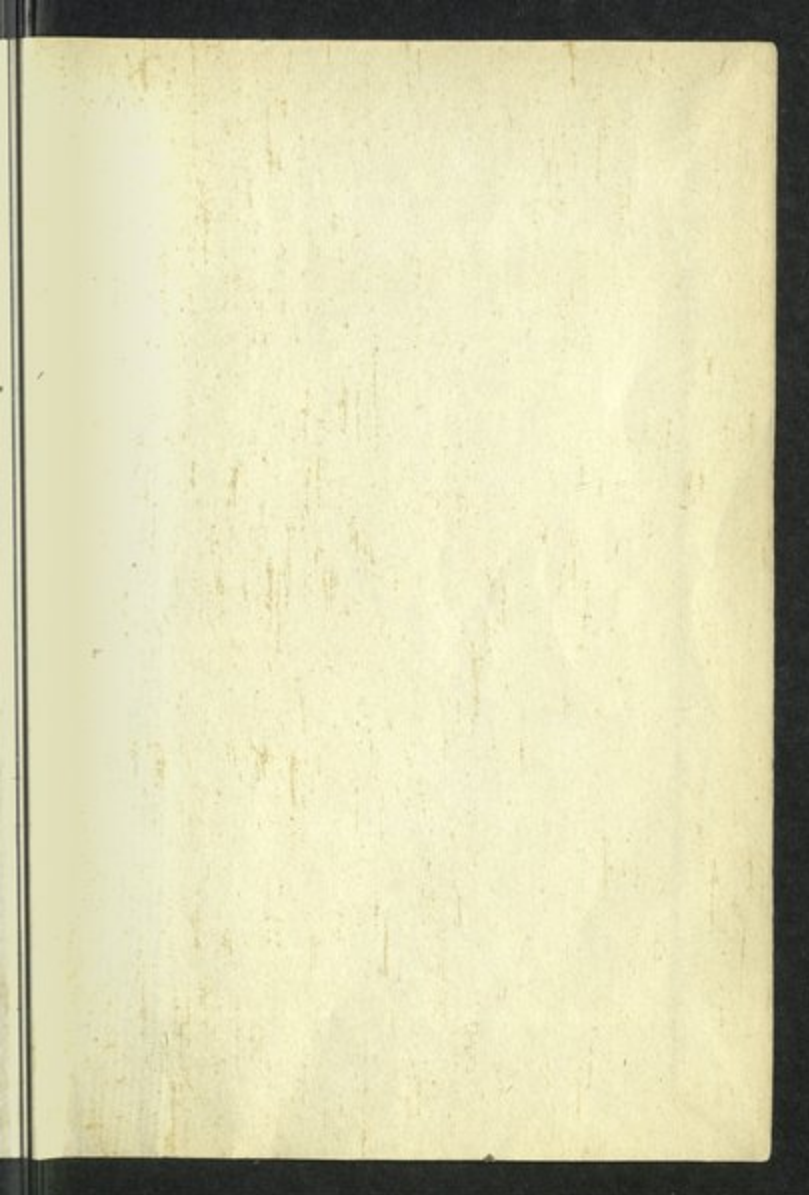
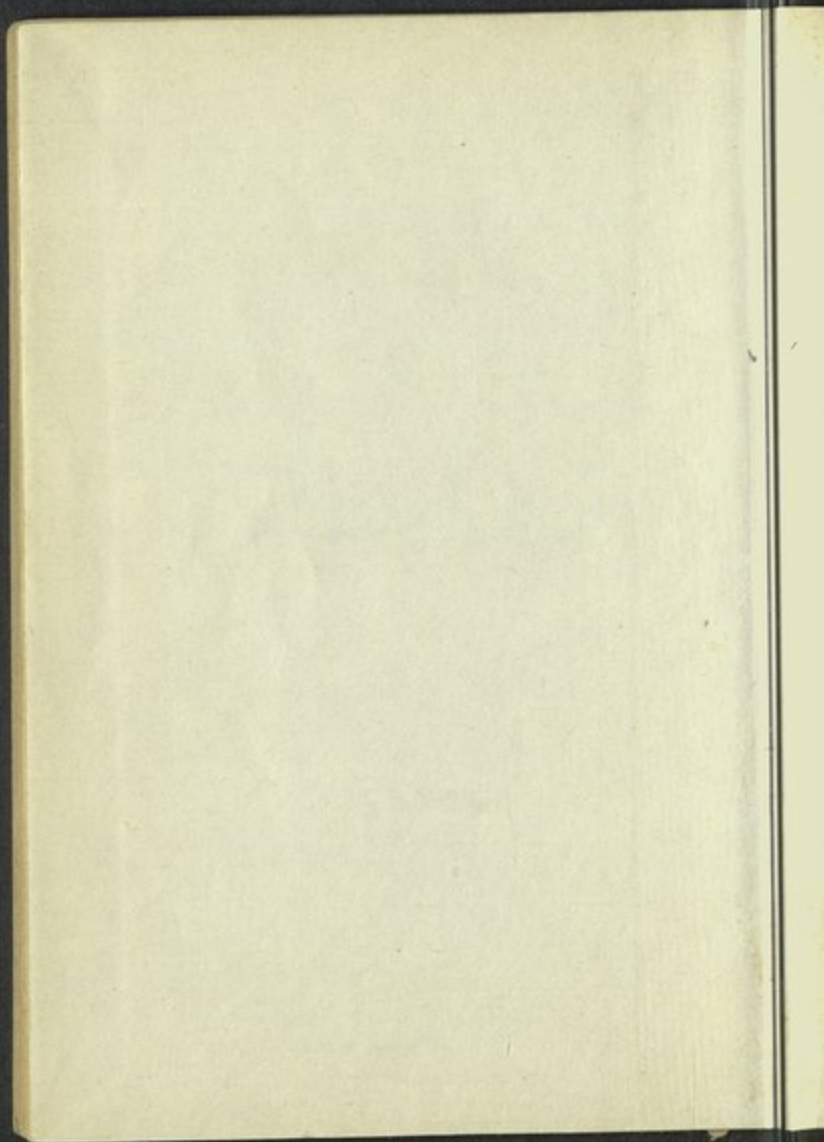




A.U.B. LIBRARY







20722

بجی صفی

892.78

Ha435qA

C. 2

قذیل اُمّہا سیم

59706

اقرا

۱۸

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون المجدى بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف



جميع الحقوق محفوظة
الطبعة المعروفة وكتبها بمصر

— شد العمة شد ، تحت العمة قرد

ولكن الشيخ رجب سلمه بقلب مفعم بالآمال إلى المدارس
الأميرية ، وعندئذ أعانته تربيته الدينية وأصله القروي ، فسرعان
ما امتاز بالأدب والاتزان وتوقير معلميهِ ، مع حشمة وكبير صبر .
إن حرم التأنق لم تفته النظافة . وهو فوق ذلك أكثر رجولة
وأقوم لساناً وأفصح نطقاً من زملائه (المدلعين) أولاد الأفندية
المبتلين بالعجمة وعجز البيان . فما لبث أن بذ الأقران ، وتلاّأت
على سيئاته نجابة لا تخطئها العين ، فتعلقت به آمال أسرته .

أصبح ، وهو لم يزل صبيّاً ، لا ينادى إلا بـ (سى إسماعيل)
أو إسماعيل أفندي ، ولا يعامل إلا بمعاملة الرجال . له أطيّب
ما في الطعام والفاكهة .

إذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب ، وهو يتلو أو راده ،
إلى همس يكاد يكون ذوب حنان مرتعش ، ومشت الأم على
أطراف أصابعها ، وحتى فاطمة النبوية — بنت عمه ، اليتيمة
أباً وأماً — تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها وتسكن أمامه في
جلستها صامتة كأنها أمة وهو سيدها . تعودت أن تسهر معه
كأن الدرس درسها ، تتطلع إليه بعينيها المريضتين المحمرتين الأجفان ،

وأصابعها تعمل في حركة متصلة لا تنقطع في بعض أشغال
 (التريكو). من ذا الذي يقول لإسماعيل : تنبه إلى هاتين
 اليدين كيف دبت فيهما خلسة حياة غريبة ، وحساسية يقظة ،
 ولمس متعرف ؟ ألا تفهم ؟ ألا تظن إلى أن دليل اقتراب
 عاهة العمى في السليم هو أن تبدأ يده في الإبصار ؟
 — قومي نامى يا فاطمة .

— لسه بدري ما جاليش نوم .

بين حين وآخر تحيل دمة مترققة شخصه إلى شبح مبهم .
 فتمسحها بطرف كمها وتعود إلى تطلعها . الحكمة عندها تتمثل
 في كلامه إذا نطق .

يا لله ! كيف تحوى الكتب كل هذه الأسرار والألغاز ؟
 وكيف يقوى اللسان على الرطانة بلغة الأعاجم ؟ وكلما كبر في
 نظرها انكششت أمامه وتضاءلت . قد يعلق بصره بصفيرتها فيتريث
 ويبتسم . هؤلاء الفيتات ! لو يعلمن كم هي فارغة رؤوسهن !
 إذا أوى إلى فراشه فعندئذ ، وعندئذ حسب ، تشعر الأميرة
 أن يومها قد انقضى ، وتبدأ تفكر فيما يلزمه في الغد . كل حياتها
 وحركاتها وقف على توفير راحتته ، جيل يفنى نفسه لينشأ فرد

واحد من ذريته ، محبة وصلت من قوتها إلى عنفوان الغريزة الحيوانية ، الدجاجة القلقة ذات النظرة المتجسسة الحذرة ترقد على بيضها مشلولة الحركة ذليلة العين ، كأنها راهبة تصلى . . . هل هي هبات من فيض كرم ؟ أم جزية جبّار مستبد ، إرادته حديد له في كل عنق طوق ، وفي كل ساق قيد ؟ تعلق هذه الأسرة بولدها ، تعلق مسلوب الحرية والإرادة فأين بربك جماله ؟ جواب هذا السؤال عند قلبي . فما من مرة تمثّلت فيها هذه الأيام البعيدة إلّا وجدته يخفق بذكراها ، ويددولي وجه جدى الشيخ رجب وحواليه هالة من وضاعة ونور . أما جدتى — الست عديلة ، بسذاجتها وطيبتها ، فمن السخف أن يقال إنها من البشر ، وإلا فكيف إذا تكون الملائكة ! ما أبشع الدنيا وأبغضها لو خلت من مثل تسليمها وإيمانها .

٢

سنة بعد سنة وإسماعيل يفوز بالأولية ، فإذا أعلنت النتيجة دارت أكواب الشرابات على الجيران ، بل ربما شاركتهم المارة أيضاً ، وزغردت (ما شاء الله) بألحان الطعمية والبصارة ، وفاز

الأسطى حسن — الخلاق ودكتور الحنى — بحلوانه المعلوم ،
وأطلقت الست عذيلة بخورها وقامت بوفاء نذرها لأم هاشم .
فهذه الأرغفة تعد وتملاً بالقول النابت وتخرج بها أم محمد تحملها
في مقطف على رأسها : ما تهل في الميدان حتى تختطف الأرغفة ،
ويختفي المقطف ، وتطير ملاءتها ، وترجع خجلة تتعثر في أذيالها
غاضبة ضاحكة من جشع شحاذى السيدة ، وتصير حادثها
فكاهة الأسرة بضعة أيام يتندرون بها .

وكذلك نشأ إسماعيل في حراسة الله ثم أم هاشم . حياته
لا تخرج عن الحى والميدان ، أقصى زهرته أن يخرج إلى المنيل
ليسير بجانب النهر أو يقف على الكوبرى . إذا أقبل المساء
وزالت حدة الشمس وانقلبت الخطوط والانعكاسات إلى الانحناءات
وأوهام ، أفاق الميدان إلى نفسه وتخلص من الزوار والغرباء . إذا
أصخت السمع وكنت نقي الضمير فطننت إلى تنفس خفي عميق
يجوب الميدان ، لعله سيدى العتريس بواب الست — أليس
اسمه من أسماء الخدم ؟ — لعله في مقصورته ينفذ يديه وثيابه من
عمل النهار ويجلس يتنفس الصعداء . فلو قيض لك أن تسمع
هذا الشهيق والزفير ، فانظر عندئذ إلى القبة . لألا من نور

يطوّف بها ، يضعف ويقوى كومضات مصباح يلاعبه الهواء .
 هذا هو قنديل أم هاشم المعلق فوق المقام . هيهات للجدران أن
 تحجب أضواءه . يمتلئ الميدان من جديد شيئاً فشيئاً ، أشباح
 صفر الوجوه ، منهوكة القوى ، ذابلة الأعين ، يلبس كل منهم
 ما قدر عليه ، أو إن شئت فما وقعت عليه يده من شيء فهو لابس .
 نداءات الباعة كلها نغم حزين :

— حراتي يا فول

— حَلِي وع النبي صلى

— لوبيه يا فخل لوبيه

— المسواك سنة عن رسول الله

ما هذا الظلم الخفي الذي يشكون منه ؟ وما هذا العبء الذي
 يجثم على الصدور جميعها ؟ ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع من
 الرضا والقناعة . ما أسهل ما ينسون ! تتناول أيد كثيرة قروشاً
 وملايم قليلة . ليس هنا قانون ومعيار وسعر ، بل عرف وخاطر
 وفصال ، وزيادة في الكيل أو طبة في الميزان . وقد يكون الكيل
 مدلساً والميزان مغشوشاً ، كله بالبركة . صفوف تستند إلى جدار
 الجامع جالسة على الأرض ، وبعضهم يتوسد الرصيف . خليط من

رجال ونساء وأطفال ، لا تدرى من أين جاءوا ولا كيف سيختفون . ثمار سقطت من شجرة الحياة فتمعنت في كنفها .
 هنا مدرسة الشحاذين . حامل كيس اللقم يتقل ظهره ينادى :
 — لقمة واحدة لله يافاعلين الثواب ، جاعان .

والشابة التى تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عارية :
 — يا لى تكسى وليه يا مسلم ربنا ما يفضح لك وليه !
 صوتها الصارخ يجذب الوجوه للنوافذ ، وعيناها الساحرتان تستهويان المطات فتمطر عليها أكوام من الخرق ورث الثياب .
 فى لحظة واحدة تذوب وتختفى ، فلا تدرى أطارت ، أم ابتلعتهما الأرض فغارت .

وهذا بائع الدقة الأعمى الذى لا يبيعهك إلا إذا بدأته السلام ،
 وأقراك وراءه الصيغة الشرعية للبيع والشراء .

ينقضى النهار فيودع الطرشي براميله ، وتترك أقدام الخراط عملها اليومى وأدواتها لتعود بصاحبها إلى الدار . لا يزال الترام هنا وحشاً مفترساً له فى كل يوم ضحية غريرة . يتقدم المساء ،
 ينعشه نسيم ذو دلال . تسمع من القهاوى ضحكات غضة وأخرى غليظة حشاشى . وإذا دلفت من الميدان إلى مدخل شارع

مراسينة ، سمعت ضجيج السكرى فى خماره إنسطامى التى يلقها
أهل الخى بفكاهتهم « خماره أنست » ، يخرج منها مكير هائج
يتطوح ويتعرض للمارة .

— ورونى أجمعص فتوة

— جتلك لهوه يا بعيد

— سيدبوه فى حاله داغلبان

— ربنا يتوب عليه

أشباح الميدان الحزينة المتعبة يحركها الآن نوع من البهجة
والمرح . ليس فى الدنيا هم ، والمستقبل بيد الله . تتقارب الوجوه
بود ، وينسى الجميع شكايته ، ويبذر الرجل آخر تقوده فى
الجوزة أو الكتشينة ، وليكن ما يكون ! تنقل أصوات اصطدام
كفف الموازين ، وتختفى عربات اليد ، وتطفأ الشموع داخل
المشعات ، عندئذ تنتهى جولة إسماعيل فى الميدان . هو خبير بكل
ركن وشبر وحجر ، لا يفاجئه نداء بائع ، ولا ينبهم عليه مكانه .
تلفه الجموع فيلتف معها كقطرة المطر يلقمها المحيط . صور
متكررة متشابهة اعتادها فلا تجد فى روحه أقل مجاوبة . لا يتطلع
ولا يمل ، لا يعرف الرضا ولا الغضب ، إنه ليس منفصلاً عن الجمع

حتى تتبينه عينه . من يقول له إن كل ما يسمعه ولا يظن
له من الأصوات ، وكل ما تقع عليه عينه ولا يراه من الأشباح
لها كلها مقدره عجيبة على التسلل إلى القلب ، والنفوذ إليه
خفية ، والاستقرار فيه ، والرسوب في أعماقه ، فتصبح في يوم
قوامه . أما الآن فلا تمتاز نظرتَه بأية حياة . . . نظرة سليمة
كل عملها أن تبصر

٣

اقتربت المراهقة وأخذ جسده يفرور ، وكأنه مرغم ، فهو
فريسة ممزقة بين قوى دافعة وأخرى جاذبة . يهرب من الناس
ويكاد يحزن لوحده . بدأ يشعر بلذة غريبة في أن يندس بين
المترددات على المسجد ، ولا سيما يوم الزيارة . في هذا الزحام كان
معنى اللباس عنده أنه فواصل بين الأجساد العارية ، يحس بها
من صدمة هيئة أو احتكاك وامض . في وسط هذه الأجساد
كان يشعر بلذة المستحم في تيار جار لا يبالي نقاء الماء
روائح العرق والعطر لا تكربه بل يتشممها بنحيشوم الكلاب .
لا يخلو يوم الزيارة من بعض المومسات - فسيدي العتريس

مأمور ألا يصد أحداً عن الساحة — يفتن لتقديم شمعة للمقام
أو للوفاء بنذر، عسى الله أن يتوب عليهن ويمحو ما على الجبين
من مقدر مسطور، كان يراهن من قبل فلا يفتن إليهن،
أما الآن فهو يتتبعهن وتعلق نظرتهم بهن وتترى، واختص
بانتباهته فتاة تأتي كل يوم زيارة، سمراء جعدة الشعر، رقيقة
الشفتين. هذه هي نعيمة، تمتاز عن زميلاتهن بصمتها وقوامها
الأنيف. كلهن يمشى مشية المتخاذل المنحل غير مكترث، أما
هي فكانت تسير إلى غرض مالكة كيائها وروحها. ذراعاها
مدودتان إلى جانبيها، يواجهك باطن كوعها، ولو دقت النظر
لما وجدت من مومس إلا ذراعين مكسورتين من أثر السقوط،
وإن كانت التنية عندها سر الخلاعة!

يتسم إسماعيل عندما يرى الشيخ درديرى — خادم المقام —
وسطهن كالديك بين دجاج. يعرفهن واحدة واحدة، ويسأل عن
الغائبات. يأخذ من هذه شمعتها، ويوسع لأخرى طريق صندوق
النذور، يتبدل رضاه فجأة فيزجرهن ويدفعهن دفعاً إلى الخروج.
تأتي إليه أيضاً نسوة ورجال يسألونه شيئاً من زيت قنديل أم
هاشم لعلاج عيونهم أو عيون أعزائهم. يشفى بالزيت المبارك

من كانت بصيرته وضاءة بالإيمان ، فلا بصر مع فقد البصيرة .
ومن لم يشف فليس لهوان الزيت ، بل لأن أم هاشم لم يسمعها
بعد أن تشمله برضاها . لعله عقاب آثامه ، ولعله هو لم يتطهر
بعد من الرجس والنجاسة ، فيصبر وينتظر ويتردد على المقام .
فإن كان الصبر أساس مجاهدة الدنيا ، فإنه أيضاً الوسيلة
الوحيدة للآخرة .

في هذا الزيت مورد رزق متسع للشيخ درديري ، ومع ذلك
لا تظهر عليه آثار النعمة . فجلبا به القدر هو هو ، وعمامته الغبراء
هى هى . وماذا يفعل بنقوده ! هل يكتنزها تحت بلاطة ؟ يتهمه زملاؤه
أنه يحرقها في الحشيش بدليل سعاله الذي لا ينقطع ، وبدليل
ما في طبعه من ميل (للقفش) والتنكيت . والحقيقة أنه مزواج
لا يمر العام إلا ويبنى ببكر جديدة . عرفه إسماعيل من تردده
على المقام ، واعتاد أن يمر عليه في أغلب الليالي بعد صلاة العشاء
ليتندر بحديثه . ومال الرجل للفتى واختصه بحنانه ، هذا الحنان
هو الذي حمله ذات ليلة على الإفضاء إليه بسر لم يفض به إلى
أحد غيره :

— تعرف ياسى اسماعيل ليلة الحضرة ، يحبى سيدنا الحسين

والإمام الشافعي ، والإمام الليث ، يحفون بالسيدة فاطمة النبوية
والسيدة عائشة ، والسيدة سكينة ، في كوكبة من الخيل ، ترفرف
عليهم أعلام خضر ، ويفوح من أردانهم المسك والورد ،
يأخذون أمكنتهم عن يمين الست وعن يسارها ، وتنعقد محكمتهم
وينظرون في ظلمات الناس ، لو شاؤوا لرفعوا المظالم جميعها .
ولكن الأوان لم يثن بعد ، فما من مظلوم إلا هو ظالم أيضاً
فكيف الاقتصاص له ؟ في تلك الليلة ، هذا القنديل الصغير
الذي تراه فوق المقام ، يكاد لا يشع له ضوء ، ينبعث منه عندئذ
لألاء يخطف الأبصار . . . إنني ساعتها لا أطيق أن أرفع عيني
إليه . زيته في تلك الليلة فيه سرّ الشفاء . فمن أجل ذلك
لا أعطيه إلا لمن أعلم أنه يستحقه من المنكسرين .

كان إسماعيل غائب الذهن ، يفكر في الفتاة السمراء التي تزم
شفتيها ، وانتبه إلى الشيخ درديرى وهو يشير بأصبعه إلى القنديل :
وسنان كالعين المطمئنة رأت ، وأدركت ، واستقرت . يصفو
ضوءه انحافت على المقام كإشعاع وجه وسيم من أم تلقم رضيعها
نديها فينام في أحضانها ، ومضات الذبالة خفقات قلبها حناناً ، أو
وقفات تسبيحها همساً ، يطفو فوق المقام كالخارص مبتعداً تبجيلاً .

أما السلسلة فوهم وتعلّة . . . كل نور يفيد اصطداماً بين ظلام
 يحجم وضوء يدافع ، إلّا هذا القنديل فإنه يضيء بغير صراع !
 لا شرق هنا ولا غرب ، ما النهار هنا ولا الليل ، لا أمس ولا غد
 وانتفض إسماعيل لا يدرى ما هذا الذي مسّ قلبه !

٤

ووافقت المراهقة سنة البكالوريا ، وخرج إسماعيل من
 الامتحان ، وقلبه واجف مغم بالشكوك ، وأعلنت النتيجة فإذا
 به يفوز ولكن في ذيل الناجحين .
 لقد كان أمه ورجاء الأسرة كلها أن يدخل مدرسة الطب .
 فإذا بها تصده عن أبوابها . واقترب العام الجديد ، ولم يستقر على
 قرار . ليس أمامه إلّا أن يدخل مدرسة المعلمين إن شاء ، أو أن
 يدرس للبكالوريا من جديد ويضيع سنة من عمره وكلا الأمرين
 بغيض إلى نفسه . لم يكن الشيخ رجب بأقلّ من ابنه قلقاً
 وحيرة . ولكم توقع بعض معارفه أن يكتفى بتعليم ابنه إلى
 الحدّ الذي بلغه ويوظفه بالبكالوريا ، إن لم يكن للمساعدة ،
 فلتخفيف عنه . آه لو علموا كيف عقد الشيخ رجب نيته على أن

يدفع بابنه إلى الصفوف الأولى ! ! يذهب هنا وهناك يسأل عن حلّ ... لا أدري من الذى قال له :

— لماذا لا ترسل ابنك إلى أوربا ؟

بات الشيخ رجب ليلته يتقلب على جنبيه .

علم أن هذا الحل سيكلفه من عشرة إلى خمسة عشر جنبياً في الشهر ، غير ما يلزم لابنه في أول الأمر من نفقات الطريق وثياب تقيه برد الشمال ؟ أيفارق ابنه ؟ وهل ترضى أمه ؟ أم سيقف حنانها في سبيل مستقبل إسماعيل ؟ وهل يقوى على دفع هذا المبلغ بانتظام كل شهر ؟ إنه لو فعل لما بقي للأسرة كلها إلا ما تعيش به على الكفاف والشظف . وإلى متى ؟ ست سنوات أو سبعاً ، والزمن قاس يدور دورة عكس . كما سمع أذان العشاء ، سمع أذان الفجر ، ثم أخذته غفوة هتف به خلالها صوت رقيق :

— توكل على الله

استيقظ من النوم وقد عقد عزمه ، وفهمت الأم أن لا مهرب من الفراق فرضيت صامتة وإن لم ينقطع بكاؤها . إلى أين ؟ بلاد برّه ! كلمة لها رنين وسحر تنسلل ، كروح مبهمة لا يطمئن لها إلى المنزل الذى لا تنقطع فيه تلاوة القرآن ، وحيث الشرع هو

الحق والعلم جميعاً . وثوت هذه الروح في ركن صغير من الدار
وغطت رأسها وتمطت ، ونامت منتصرة قريرة العين . بلاد برّه !
ينطق بها الأب كأنها إحسان من كافر لامفرّ من قبوله ، لا عن
ذلة ، بل للتزود بنفس السلاح . أما الأم ، فمنذ الآن تركبها رعدة
الحيط وتأخذها رجفة البرد . تتصور بلاد برّه في نهاية سلم عال
ينتهى إلى أرض تغطيها الثلوج ، ويسكنها أقوام لهم حيل الجن
والأعبيهم . أما فاطمة النبوية فقلبها واجف ، تسمع أن نساء
أوربا يسرن شبه عاريات ، وكلهن بارعات في الفتنة والإغراء ،
فإذا سافر إسماعيل فلا تدرى كيف يعود إن عاد .

وجمع الأب كل ما استطاع جمعه من مال ، وباعت الأم حليها ،
واشتريت تذاكر السفر والملابس الثقيلة التي تقي من برد أوربا
واقترب موعد السفر وحلّ الوداع .

واجتمعت الأسرة صامتة حزينة . قلوب خائفة ، وعيون
دامعة ، وأنشأ الأب يقول لابنه :

— وصيتي إليك أن تعيش في بلاد برّه كما عشت هنا
حريصاً على دينك وفرائضه ، وإن تساهلت مرة فلن تدرى
إلى أين يقودك تساهلك . ونحن يا بني نريدك أن ترجع إلينا

(٢) مفلحاً لتبييض وجوهنا أمام الناس . وأنا رجل قد أوشكت على
الكبر ، وقد وضعت كل آمالنا فيك . وإياك أن تغرك نساء أوربا
فهن لسن لك وأنت لست لهن .

ثم صمت الأب قليلاً وعاد يقول :
واعلم أن أمك وأنا قد اتفقنا على أن تنتظر فاطمة النبوية
فأنت أحق بها وهي أحق بك . هي بنت عمك وليس لها غيرك ،
وإن شئت قرأنا الفاتحة معاً يومنا هذا ، عسى أن يصحب سفرك
البركة واليمن

لم يسعه إلا القبول . فوضع يده في يد أبيه ، وقرأ معه الفاتحة ،
بينهما أم تبكي ، وفتاة حيرى بين الأسى والفرح .
كان إسماعيل يعلم أن هذه الفاتحة ستأتي في يوم ولكنه لم
يتوقعها في تلك الليلة ، فلقد نشأ مع فاطمة النبوية أخوين ، وقاما
نظر إليها كما نظر إلى فتاته السمراء .

قرأ الفاتحة وهو شارد اللب ، إرضاء لأبيه ، وقلبه يقول له :
« احفظ عهدك ! » فيجيبه : « لماذا ؟ لماذا ؟ » كل هذه أشياء
غامضة ، لأنه حتى اليوم ما يزال طاهراً عفيفاً ، لم يقترب من
امرأة . وإنه لكاذب - وإسماعيل لا يكذب - إذا أنكر أنه

جوعان إلى فتاته السمراء ، إلى النساء جميعاً ، ولا سيما أخيراً !
إلى نساء أوربا .

٥

وخرج إسماعيل يودع بعض أصدقائه ثم انتهى إلى الميدان ،
وقد اقترب الغروب تتلقف آذانه ما أمكنها من نداءات
الباعة التي ألفها ، وخيل إليه أن في الميدان حركة غير التي عهد ،
كأن القوم قد أصبحوا أسرع مشية . ما لهم لا يلوون على شيء ؟
أفليست الحياة إلا سباقاً ؟ كم ودّ لو وقف واحد من المندفعين
وبادله الحديث . لم يلتفت إليه أحد . في الميدان حركة النمل
تتعارض وتتقاذى وتضرب في كل اتجاه . قادته قدماه إلى المقام
فوجدته ساكناً على غير عادته . الشيخ درديرى واقف مطأطئ
الرأس كأنما هو متعب أو تسلط عليه خوف ورهبة . دار إسماعيل
حول المقام حتى إذا جاء للسور الذي يفصل مكان النساء عن
الرجال انقبه إلى شيخ واقف وراءه ، هي فتاته السمراء
ألصقت جبينها على السور . سمر إسماعيل في مكانه وسمعها
تقول هامسة :

يا أم هاشم ! يا ستارة على الولايا . لا تفضى عينيك ولا
تشيحي بوجهك . تمد إليك يد مسترحمة فخذوها . إن الله طهرك
وصانك وأنزلك الروضة ، وإن قلبك لرؤوف . إذا لم يقصدك
المرضى والمهزومون والمخطمون فمن غيرك يقصدون . إذا نُسينا
فاذكري أنت ! متى يمحي المقدّر على . أيرضيك أن جسدي ليس
منى فما أشعر بآلم وهو ينهش نهشاً . هاهي روحي على عتباتك تتلوى
وتتمرغ مصروعة تريد أن تفيق . منذ غادرني رضا الله وأنا كالنائم
يركبه الكابوس ، يقبض في يد واحدة على الموت والحياة !
رضيت لحكمه وأسلمت نفسي ، ولن أضيع وأنت هنامعنا . أفيطول
الأمد ، أم أن رحمة الله قريب ، نذرت لك يوم يتوب المولى على
أن أزيّن مقامك الطاهر بالشموع ، خمسين شمعة ، يا أم هاشم
يا أخت الحسين !

ووضعت الفتاة شفتيها على سور المقام . ليست هذه القبلة
من تجارتها ، بل من قلبها . ومن ذا الذي يجزم بأن أم هاشم
لم تسع إلى السور قد هيأت شفتيها من ورائه لتباد لها قبلة بقبلة ؟
هم إسماعيل أن يخرج من المسجد ليلحقها ويكلمها ، فلم
تتحرك قدماه . أراد أن يفضي لها بكل ما في نفسه . إن لحظة

الاتزاع من الأسرة والوطن ومواجهة الغربة والوحدة والمجهول
 تضنى أعصابه وتهصر قلبه . لماذا يهتز لمراها دون سائر النساء ؟
 أو أهم هو ؟ لا . إن صوتاً خفياً يريد أن ينطق في قلبه ويتكلم
 ويرشده إلى السر . ولكن هناك ألف غطاء وغطاء تكتم هذا
 الصوت وتخفقه . ولعل الفتاة لم تره ولم تشعر به . وهرب إسماعيل
 من حيرته إلى الشيخ درديرى ، وحديثه الثرثار ينزل بلسماً على
 فؤاده . وقفته في صمت المقام ، وتحت ضوء القنديل ، ويده معلقة
 بالسور تارة ، ماسحة على وجهه تارة أخرى ، هى آخر ما يذكره
 عن رحيله من القاهرة . فكل ما حدث له بعد خروجه من المقام
 شمله من أخص قدميه إلى رأسه كالتيار المندفِع العنيف ، يتأرجح
 فيه ملقى القياد ، مقلوب الوضع ، فقد خلاله الزمن ترتيبه ،
 والمرئيات اعتدالها ، والأصوات صدقها وفروقها . وداع الأسرة ،
 وما أمره ! فى الدار وسط النحيب والبكاء ، والمحطة ، والقطار
 ثم الميناء وحرركته ، والباخرة المجهولة وصغيرها . إننى أتخيله
 صاعداً سلم الباخرة شاباً عليه وقار الشيوخ ، بطيء الحركة ، غريب
 النظرة ، أكرش ، ساذجاً ، كل ما فيه ينبئ أنه قروى
 مستوحش فى المدينة . أقسم لى عمى إسماعيل فيما بعد أنه كان

يحمل في أمتعته قبقاباً ، فقد سمع الشيخ رجب أن الوضوء
 في أوربا متعذر لاعتياد الناس لبس الأحذية في البيوت .
 كما وصف لى وهو يبتسم سراويله وطولها وعرضها وتسكتها
 المحلاوى . كان معه أيضاً سلة ملأى بالكعك و (المنين)
 من عمل أمه وفاطمة النبوية .
 وسافرت الباخرة .

٦

ومرّت سبع سنوات ، وعادت الباخرة .
 من هذا الشاب الأنيق السمهرى القامة ، المرفوع الرأس ،
 المتألق الوجه ، الذى يهبط سلم الباخرة قفزا ؟ هو والله إسماعيل
 بعينه . أستغفر الله ! هو الدكتور إسماعيل ، المتخصص فى طب
 العيون ، والذى شهدت له جامعات إنجلترا بالتفوق النادر ،
 والبراعة الغدّة ، كان أستاذه يمزح معه ويقول له :
 — أراهن أن روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمّصت
 فيك يا مستر إسماعيل . إن بلادك فى حاجة إليك ، فهى
 بلد العميان .

رأى فيه دراية كأنها ملهمة ، وصفاء هو سليل نضج أجيال
طويلة ، ورشاقة أصابع هي وريثة الأيدي التي نحتت من الحجر
الصلد دمي تكاد تحيا .

أقبل يا إسماعيل فإنا إليك مشتاقون . لم نرك منذ سبع سنوات
مرت كأنها دهور . كانت رسائلك للتوالية ، ثم المتراخية ،
لاتنفع في إرواء غلتنا . أقبل إلينا قدوم العافية والغيث . وخذ
مكانك في الأسرة فستراها كالآلة وقفت بل صدت لأن محركها
قد انتزع منها . آه ! كم بذلت هذه الأسرة لك . فهل تدري ؟
لم ينم إسماعيل ليلة الوصول إلا غراراً . قفز إلى ظهر الباخرة
مع الفجر يريد ألا يفوته أول ما يبدو من شاطئ الإسكندرية .
لا يرى شيئاً على الأفق ، ولكن خياشيمه تتشم في النسيم
رائحة لم يألّفها من قبل . أول من لقيه من وطنه مخلوق الكون
كله وطنه . طائر أبيض ، منفرد يحوم حول السفينة ، طليق
متعال ، نظيف ، وحيد . لماذا تتعمد البواخر كل هذا التلكؤ
عند الوصول ، وما كان أسرعها عند الفراق ؟ إنها تتهادى
بدلال العودة ، فمالها وللركاب وما يشعرون . كتم إسماعيل عن
أهله موعد الباخرة حتى لا يكلف أباه الشيخ مشقة السفر

للاسكندرية . في عزمه أن يبرق إليهم بموعد وصول قطاره
 للقاهرة . هذا هو الفئار المتمنطق ، وهذا هو الشاطئ الأصفر
 يكاد يكون في مستوى الماء . أنت يا مصر راحة ممدودة إلى
 البحر لا تفخر إلا بانبساطها ، ليس أمامك حواجز من شعاب
 خائنة ، ولا على شاطئك جبال تصد . أنت دار كل ما فيها يوحى
 بالأمان . . . ها هو أول قارب يظهر ، فيه شيخ قد وخط الشيب
 لحيته ، مقوس الظهر ، أقمى كالقرد في مقدم قاربه يصطاد . جلبابه
 الأزرق ، أو الذي كان أزرق ، ممزق مرقع . وقعت نظرة إسماعيل
 على سيدة مصرية وقفت بجواره ، فرآها مظلة على الصياد ، مغرورة
 عينها بالدموع وسمعتها تتمتم :

— مصر ! مصر !

كيف ينتبه لها الصياد وهو لم ينتبه للباخرة كلها . مثلها كثيرات
 داخلات خارجات تكاد تصدم قاربه ، ولكن هيئات لها أن
 تصدم عالمه المقل ، عالم يجري على وتيرة واحدة متكررة يوماً
 بعد يوم . هم إسماعيل بأن ينادى هذا الشيخ ويلقى عليه السلام ،
 أو يلوّح له بمندبل . كيف تسقط المقاييس وينهزم المنطق
 في مثل تلك اللحظات التي تتأجج فيها العواطف ، وتصفو القلوب !

ورن جرس إيذاناً بموت الباخرة ، فأصبحت جثتها فريسة لجيش
من النمل البشرى يهاجمها . جنود وضباط ، وإخواننا المحتلون
ولو أنهم أخلاط مطر بشون ، وحمالون وصيارفة وزوّار . ثم اندلق
الزحام والتدافع ، وتعالّت النداءات ، وكثر العناق والتقبيل ،
وإسماعيل وسط التيار ، غير مغمور ، يلتقط بنهم كل ما يصل
إليه ، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة مطمئنة ، له أذن فارزة واعية ،
ونظرة حيّة يقظة تريد أن ترى كل شيء ، وتفهم كل شيء . إذا
دققت النظر إليه وجدت تكورات وجهه قد زالت وشدّ شدقه
في أخدودين . كانت شفته مرتختين ، قلما تنطبقان ، أما الآن
فقد ضمهما عزم ووثوق . يجتاز الجرك . وفي العربة يستمع لوقع عجلائها
بين الأسفلت والبلاط ، فيذكره تنافر النغم وتناوبه بيوم السفر .
كم يبدو له هذا اليوم متردياً في هوة من ماض بعيد . بعيد
كالحلم كيف تقوى ذكرى هذا اليوم على البقاء بعد
سبع سنوات قضّاها في إنجلترا قلبت حياته رأساً على عقب .
كان عفّاً فغوى ، صاحباً فسكر ، راقص الفتيات وفسق .
هذا المهبوط يكافئه صعود لا يقل عنه جدّة وطرافة ، تعلم كيف
يتذوق جمال الطبيعة ، ويتمتع بغروب الشمس — كأن لم يكن في

وطنه غروب لا يقل جمالاً — ويلتذّ بلسعة برد الشمال .
 إن لم يكن له في هذه الفترة سوى (مارى) زميلته في الدراسة
 لكفى بها في نسيان ماضيه . لقد أخذ هذا الفتى الشرق الأسمر
 بلبها فأثرته واحتضنته . عندما وهبته نفسها ، كانت هى التى
 فضت براءته العذراء . أخرجته من الوحى والخبول إلى النشاط
 والوثوق ، فتحت له آفاقاً يجهلها من الجمال : فى الفن ، فى الموسيقى ،
 فى الطبيعة ، بل فى الروح الانسانية أيضاً .
 قال لها يوماً :

— سأستريح عندما أضع لحياتى برنامجاً أسير عليه .
 فضحكت وأجابت :

— يا عزيزى إسماعيل . الحياة ليست برنامجاً ثابتاً ، بل
 مجادلة متجددة .

يقول لها : « تعالى نجلس » فتقول له : « قم نسر » . يكلمها
 عن الزواج ، فتكلمه عن الحب . يحدثها عن المستقبل فتحدثه
 عن حاضر اللحظة . كان من قبل يبحث دائماً خارج نفسه عن
 شىء يتمسك به ويستند إليه : دينه وعبادته ، وتربيته وأصولها ،
 هى منه مشجب يعلق عليه معطفه الثمين . أما هى فكانت تقول

له : « إن من يلجأ إلى المشجب ، يظل طول عمره أسيراً بجانبه يحرس معطفه . يجب أن يكون مشجبك في نفسك » إن أخشى ما تخشاه هي : القيود ، وأخشى ما يخشاه هو : الحرية . كانت هبتها له في مبدأ الأمر محل حيرته ، فكانت حيرته محل سخريتها . كان يتجافى الناس ويقدر احتمالات ودهم ، ويهتم كيف يكون حكمهم عليه ، وإذا لقي من تريخه الجمالة لا يجد بأساً في مجاملته ، وقلبه غير مشارك . التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج منه ظافراً أو خاسراً . أما هي فتهتم بالناس جميعاً ، ولا تهتم بهم جميعاً . التعارف عندها لقاء ، والود متروك للمستقبل ، ومع تساوى ودها للناس جميعاً ، كانت بتارة في إقصاء الضعيف ، والسخيف ، والمتعالم ، والردل ، والحزين ، والمنافق ، فلما تخلصت من هذه الأوشاب أصبحت لا ينجذب إليها إلا من تطمئن لصحبته .

رأته يطيل جلسته بجانب الضعفاء من مرضاه ، ويخص معطفه من يلحظ فيه آثار تخريب الزمن للأعصاب والعقول — وما أكثرهم في أوربا ، يجلس صامتاً ينصت لشكواهم . وكان أكبر كرم منه أن يمشى منطقة منطقهم المريض . لحظته (ماري)

وحلقة المرضى والمهزومين تطبق عليه يتشبثون به ، كل يطلبه لنفسه ، فأقدمت وأيقظته بعنف :

— أنت لست المسيح بن مريم ! « من طلب أخلاق الملائكة غلبته أخلاق البهائم ! » و « الإحسان أن تبدأ بنفسك » . هؤلاء الناس غرقى يبحثون عن يد تمد إليهم ، فإذا وجدوها أغرقوها معهم ! إن هذه العواطف الشرقية مردولة مكروهة ، لأنها غير عملية وغير منتجة . وإذا جردت من النفع لم يبق إلا اتصافها بالضعف والهوان . إنما هذه العواطف قوتها في الكتمان لا في البوح !

كانت روحه تتأوه وتتلوى تحت ضربات معولها ، كان يشعر بكلامها كالسكين يقطع من روابط حياة يتغذى منها إذ توصله بمن حوله . واستيقظ في يوم فإذا روحه خراب ، لم يبق فيها حجر على حجر . بداله الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهير ، والنفس البشرية لا تجد قوتها ومن ثم سعادتها إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها ، أما الاندماج فضعف ونقمة .

لم تقو أعصابه على تحمل هذا التيه الذي وجد نفسه غريقاً وحيداً في خلائه ، فرض وانقطع عن الدراسة ، وافترسه نوع من

القلق والخيرة ، بل بدت في نظرتة أحياناً لحات من الخوف والذعر .

وكانت (مارى) هى التى أنقذته . أخذته في رحلة إلى الريف بإسكتلندة ، يجولان بالنهار مشياً أو على الدراجة بين الحقول ، أو يصطادان السمك ، وبالليل تذيبه من متعة الحب أشكالاً وألواناً . من حسن حظّه أنه استطاع أن يجتاز هذه المحنة التى يتردى فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب فى أوربا ، وخلص منها بنفس جديدة مستقرة ، ثابتة واثقة . إن اطرحنا الاعتقاد فى الدين ، فإنها استبدلت إيماناً أشد وأقوى بالعالم ، لا يفكر فى جمال الجنة ونعيمها ، بل فى بهاء الطبيعة وأسرارها . ولعلّ أكبر دليل على شفائه أنه بدأ يتخلص من سيطرة (مارى) عليه . أصبح لا يجلس بين يديها جلسة المرید أمام القطب ، بل جلسة الزميل إلى زميله . لم يدهش ، ولم يتألم كثيراً ، عند ما رآها تبتعد عنه وتنصرف إلى زميل من جنسها ولونها . إنها ككل فنّان يملّ عمله حين يتم شفى إسماعيل ففقد كل سحره ، أصبح كغيره ممن تعرفهم . فلتجرب إذاً صديقها الجديد على أن إسماعيل لم يقو على مغادرة إنجلترا دون أن يسعى إلى لقائها

لآخر مرة . دعاها فلم ترفض ، وجاءته . ولم يسأل نفسه أعلى علم
من صديقها الجديد أم على غفلة منه ؟ ووهبت له نفسها مرة
أخرى ، فهذه العلاقة ليست عندها بذات بال ولا خطر . كانت
ضمنها له نوعاً من المصافحة وسلام الوداع .

وهتفت به وهي تنصرف على دراجتها :

- آمل أن أراك في مصر يوماً من الأيام . ومن يدري ؟
فالى اللقاء إذاً ، ولا أقول وداعاً .

نساء العصر الحديث ! كم ذايواجهن الاحتمالات بقلوب ثابتة ،
شجرة الحياة أمامهن مثقلة بالشمر منوعته . لهن شهية مفتوحة ،
فلم التأسى والبكاء على ثمرة والشجرة مفعمة ؟

٧

والظاهرة العجيبة التي لا أستطيع تفسيرها أن إسماعيل أفاق
من حبه (لمارى) فوجد نفسه فريسة حب جديد . الآن القلب
لا يعيش خالياً ؟ أم أن (مارى) هي التي نهبت غافلاً في قلبه
فاستيقظ وانتعش ؟ كان إسماعيل لا يشعر بمصر إلا شعوراً مبهماً ،
هو كذرة الرمل اندمجت في الرمال واندست بينها ، فلا تميز منها ،

ولو أنها مع ذلك منفصلة على كل ذرة أخرى . أما الآن فقد بدأ
يشعر بنفسه كحلقة في سلسلة طويلة تشده وتربطه رباطاً إلى وطنه .
في ذهنه مصر عروس الغاية التي لمستها ساحرة خبيثة بعضهاها
فنامت ، عليها الحلى و (دواق) ليلة الدخلة . لارعى الله عينا
لم ترجأها ولا أنفأ لا يشم عطرها ! متى تستيقظ ؟ متى ؟ وكما
قوى حبه لمصر زاد ضجره من المصريين . ولكنهم أهله وعشيرته
والذنب ليس ذنبهم . هم ضحية الجهل والفقر والمرض والظلم الطويل
المزمن . إنه حدق في الموت مراراً ، وجس المجذوم ، واقترب منه
من فم الحموم . ترى هل ينكص الآن عن لمس هذه الكتلة البشرية
التي لحمه من لحمها ودمه من دمها ؟ قد عاهد نفسه في حبه لمصر
أن لا يرى منكراً إلا دفعه . علمته (ماري) كيف يستقل بنفسه ،
وهيأت لهم بعد ذلك أن يجرعوه خرافاتهم وأوهامهم وعاداتهم .
ليس عبثاً أن عاش في أوربا وصلى معها للعلم ومنطقه . علم أن
سيكون بينه وبين من يحتمك بهم نضال طويل ، ولكن شبابه
هوّن عليه القتال ومتاعبه ، بل كان يتشوق إلى المعركة الأولى ،
وسرح ذهنه فإذا هو كاتب في الصحف ، أو خطيب في أحد
الاجتماعات يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته .

وتحرك القطار بإسماعيل ولم يرسل برقيته . لا يدري لماذا
ضعف عن لقائهم بالخطّة وسط الضجيج والضوضاء وعلى أعين
الناس ، وربة المتاع . إنه يود أن يلقي أعزاه في دارهم ، وعلى
نجوة من الغرباء . ولم يقدر وقع المفاجأة على أبيه وأمه العجوز .
ذكرهما فوجف قلبه . هل يستطيع أن يؤدي لهما بعض ما هو
مدين به ؟ إنه قادم مزود بنفس السلاح الذي أراده له أبوه ،
وسيدشق لنفسه بهذا السلاح طريقه إلى أول الصفوف ، وسيعرض
عن خدمة الحكومة ويفتح عيادة في أرقى أحياء القاهرة ،
وسيدهش القاهريين أولاً ثم المصريين جميعاً بما أتقنه من فن
واكتسبه من خبرة . فإذا تدفق عليه المال أعفى أباه الشيخ من
العمل ، واشترى له أرضاً في بلدهم ليعيش مستريحاً . ثم وجم
إسماعيل ، لقد تذكر أنه لم يأت معه من أوروبا بهدية لأسرته ،
وسرّى عنه إذ قال لنفسه :

— وماذا في أوروبا كلها يصلح لأبي وأمي ؟

وفاطمة النبوية ؟ ذكرها تثير في نفسه بعض الاضطراب ،
لم يزل مرتبطاً بوعده ، وقد عاد حراً ، فلا عذر له إذا اعتذر .
هذه مسألة معقدة فلنتركها للمستقبل .

وأطل من النافذة فرأى أمامه ريفاً يجري كأنما اكتسحته
عاصفة من الرمل فهو مهدم معمر متخرب . الباعة على المحطات
في ثياب ممزقة تلهث كالحیوان المطارد وتتصبب عرقاً .

ولما سارت العربة من المحطة ، ودخلت شارع الخليج الضيق
الذى لا يتسع لمرور الترام ، كان أبشع ما يتصوره أهون مما رآه :
قذارة وذباب ، وفقر وخراب ، فانقبضت نفسه ، وركبه الوجوم
والأسى ، وزاد لهيب الثورة في قرارة نفسه ، وزاد التحفز .

ووقف أمام البيت ، وتناول مطرقة ، وتركها تسقط ،
فاختلطت دقات قلبه . سمع صوتاً رقيقاً ينادى بلهجة
نساء القاهرة :

— مين ؟

— أنا إسماعيل ! افتحي يا فاطمة !

٨

يا إسماعيل . ما أقساک ! وما أجهل الشباب !

كادت أمه يغمى عليها ، وانعقد لسانها وهي تضمه وتقبل
وجهه ويديه ، تشهق وتبكي . يا لله ! كم شاخت وتهدلت وضعف

صوتها وبصرها ! إن الغائب في وهم ، يتوقع أن يعود لأحبابه
 فيجدهم كما تركهم منذ سنوات . صوت يهمس في قلبه :
 - ليست لها من الشخصية نصيب ! ليست إلا كتلة من
 طيبة سلمية .

وجاءه أبوه تفيض على وجهه ابتسامة هادئة . اشتعل شبيهه
 وإن لم تنحن قامته ، في عينيه نظرة مشوبة من إعياء وصبر ، من
 راحة ضمير وشعور بالحمل الثقيل . سيعلم إسماعيل فيما بعد أن الأزمة
 كوته بنارها فانتكست أموره ، ومع ذلك لم يتأخر في يوم ما عن
 موعد إيداع النقود بالبنك لابنه . لم يذكر لإسماعيل ما يعانيه
 أو يدعوه إلى الاقتصاد أو يستعجله للعودة . يلهو إسماعيل في
 أسكتلندة مع رفيقته يأكل البفتيك ، وأبوه تعيد داره ، عشاؤه
 طعمية أو فجل .

لإسماعيل نظرة من طرف عينيه تطوف في الدار ، فإذا هي أضيق
 وأشد ظلمة مما كان يذكر . أما يزال ضوءهم من مصباح البترول ؟
 قطع الأثاث بالية متناثرة تبسـدو - رغم مر السنين وطول
 الصحبة - كأنها مهاجرة في دار غريبة . ولماذا هم على البلاط ؟
 وأين البساط ؟

هذه أم محمد ترتبك كهاتهما بين الأطباق والحلل ، وهي
تزغرد ، فيزجرها ويقول لها :

— بس بلاش خوته يا وليه اعقلى .

ولكن أين فاطمة النبوية ؟ أقبلت فإذا أمامه فتاة في شرح
الصبا ، ضفرتها وأساورها الزجاجة الرخيصة ، وحركاتها وكل
ما فيها وما عليها يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف . هل هذه
هى الفتاة التى سيتزوجها ؟ علم منذ اللحظة أنه سيخون وعده
وينكث عهده . وما لها معصوبة العينين ؟ فهى ترفع ذقنها
لتستطيع أن ترى وجهه . لم يدعها الرمد منذ سافر ، وساء حالها
يوماً بعد يوم .

وأعد العشاء وجلسوا ، ولعلمهم جلسوا من أجله حول مائدة
لهم من الخشب الأبيض . لم يأكل أحد ، لم يأكلوا هم من
حدة الفرخ ، ولم يأكل هو من صدمة اليقظة . اعترف لى
إسماعيل فيما بعد بأنه حتى فى اللحظة التى كان يجب أن تشغله
سعادة العودة إلى أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد ،
لم يملك نفسه عن التساؤل : كيف يستطيع أن يعيش بينهم ؟
وكيف سيجد راحته فى هذه الدار ؟

وأعد الفراش ، وأبى الشيخ رجب إلا الانصراف إلى غرفته
ليترك ابنه يستريح من عناء السفر . وهذه أمه تجذب نفسها
جذباً وتهم بتركه ، ولكنها تشير إلى فاطمة وتقول :

— تعالى يا فاطمة قبل أن تنامى أقطر لك في عينيك .

ورأى إسماعيل أمه وفي يدها زجاجة صغيرة ، وترقد فاطمة
على الأرض وتضع رأسها على ركة الأم ، فتسكب من الزجاجة
في عينيها سائلاً تتأوه منه فاطمة وتتألم .

سألها إسماعيل :

— ما هذا يا أمى ؟

— هذا زيت قنديل أم هاشم . تعودت أن أقطر لها منه
كل مساء .

لقد جاءنا به صديقك الشيخ درديرى . إنه يذكرك ويتشوق
إليك . هل تذكره ؟ أم تراك نسيتته ؟

قفز إسماعيل من مكانه كالملسوع . أليس من العجيب أنه
وهو طبيب عيون ، يشاهد في أول ليلة من عودته ، بأية وسيلة
تداوى بعض العيون الرمى في وطنه ؟ . . .

تقدم إسماعيل إلى فاطمة فأوقفها ، وحل رباطها وخفص عينيها ،

فوجد رمداً قد أتلف الجفنين وأضر بالمقلة ، فلو وجد العلاج
المهدى المسكن لتماثلت للشفاء ، ولكنها تسوء بالزيت الحار
الساوى .

فصرخ فى أمه بصوت يكاد يمزق حلقه :
— حرام عليك الأذية . حرام عليك ، أنت مؤمنة تصلين ،
فكيف تقبلين أمثال هذه الخرافات والأوهام ؟
وصمتت أمه وانعقد لسانها ، تحاول أن تتمم ولا تبين .
ورأى إسماعيل شبح أبيه على الباب ، فى جلباب أبيض
قصير ، وعلى رأسه طاقية تحتها وجه مربد . هل يتوقع قلبه الحنون
مكروهاً ؟ ماذا ؟ لعل فى تصرفات إسماعيل وحركاته ونظراته
ما أيقظ فى نفسه منذ اللحظة الأولى بعض الريبة . ما هذا
الصراخ ؟ ماذا حدث ؟

ونطقت أمه أخيراً تستعيز بالله وتقول له :
— اسم الله عليك يا إسماعيل يا ابنى . ربنا يكملك بعقلك .
هذا غير الدوا والأجزاء . هذا ليس إلا من بركة أم هاشم .
وإسماعيل كثور هائج لوحى له بغلالة حمراء .
— أهى دى أم هاشم بتاعتكم هى اللى ح تجيب للبنى

العمى . سترون كيف أداويها فتنال على يدي أنا الشفاء الذى لم تجده عند الست أم هاشم .

— يا ابني ده ناس كتير بيتباركوا بزيت قنديل أم العواجز .

جر بوه ور بنا شفاهم عليه . إحنا طول عمرنا جاعلين تكالنا على الله وعلى أم هاشم . ده سرها باتع .

— أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفريت .

هبط على الدار صمت مقبض كصمت القبور . فى هذا البيت تعيش قراءة القرآن والأوراد ، وصدى الأذان ، كأنها جميعاً استيقظت وانتبهت ، ثم أطرقت وانطفأت ، وحل محلها ظلام ورهبة . . . لا عيش لها مع هذه الروح الغريبة التى جاءت لهم من وراء البحار .

وسمع صوت أبيه كأنما يصل إليه من مكان سحيق :

— ماذا تقول ؟ هل هذا كل ما تعلمته فى بلاد بره ؟ كل

ما كسبناه منك أن تعود إلينا كافراً ؟

كل ما فعله إسماعيل بعد ذلك يدل على أن المرض العصبى القديم قد عاوده فجأة ، وانفجر بشدة من جديد . فقد وعيه وشعر بحلقه يجف ، و بصدره يشتعل ، و برأسه يموج فى عالم غير هذا

العالم . شب على قدميه واقفاً . لا شك أن في نظريته ما يخيف ،
فقد تضاءلت الأم أمامه وابتعد الأب عن طريقه . هجم إسماعيل
على أمه يحاول أن ينتزع منها الزجاجة فتشبثت بها لحظة ، ثم
تركتها له ، فأخذها من يدها بشدة وعنف ، وبحركة سريعة
طوح بها من النافذة .
وكان صوت تحطمها في الطريق دوى القنبلة الأولى في
المعركة .

ووقف إسماعيل حائراً لحظة ، له نظرة تجوب ما حوله وتنقل
من وجه أمه وفاطمة إلى وجه أبيه . وجد إشفاقاً وعطفاً ، ولم
يجد تسامحاً وفهماً . ربما استشف في نظرتهم بعض الرعب فتزايد
هياجاً ، وانطلق إلى الباب ، وفي طريقه وجد عصا أبيه فأخذها
ثم هرب من الدار جرياً ، لن ينكص عن أن يطعن الجهل
والخرافة في الصميم طعنة نجلاء — ولو فقد روحه .

٩

أشرف على الميدان فإذا به يموج كدأبه بخلق غفير ، ضربت
عليهم المسكنة ، وثقلت بأقدامهم قيود الذل . ليست هذه كائنات

حياة تعيش في عصر تحرك فيه الجماد . هذه الجموع آثار خاوية
محطمة كأعقاب الأعمدة الخربة ليس لها ما تفعله إلا أن تعثر
بها أقدام السائر . ما هذا الصخب الحيواني ؟ وما هذا الأكل
الوضيع الذي تلتهمه الأفواه ؟ يتطلع إلى الوجوه فلا يرى إلا
آثار استغراق في النوم كأنهم جميعاً صرعى أفيون . لم ينطق له
وجه واحد بمعنى إنساني . هؤلاء المصريون : جنس سمج ثرثار ،
أقرع أرمد ، عارحاف ، بوله دم ، وبرازه ديدان ، يتلقى الصفعة
على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه . ومصر ؟
قطعة (مبرطشة) من الطين أسنت في الصحراء ، تطن عليها
أسراب من الذباب والبعوض ، ويغوص فيها إلى قوائمه قطيع
من جاموس نحيل .. يزدحم الميدان ببائعي اللب والفول ، وحب
العزير ، ونبوت الغفير ، والهريسة ، والبسيصة ، والسنبوسكة ،
بليم الواحدة . في جنباته مقاه كثيرة على الرصيف ، بجوار
الجدران ، قوامها موقد وإبريق وجوزة . أجساد لم تعرف
الماء منذ سنين ، الصابون عندها والعنقاء سواء . تمر أمامه فتاة
مزججة الخواجب ، مكحلة العينين ، شدت ملاءتها لتبرز عجزتها
وطرف ثوبها ، وتحجبت ببرقع يكشف عن وجهها . وما معنى

هذه القصة التي تضعها على أنفها؟ أف! ما أبشع رياء هذا المنظر
وما أقبحه! سرعان ما بدأ الناس يتحركون بها كأنهم كلاب
لم يروا في حياتهم أنثى! هنا جمود يقتل كل تقدم، وعدم
لا معنى فيه للزمن، وخيالات الخدر، وأحلام النائم والشمس
طالعة

لو استطاع إسماعيل لأمسك بذراع كل واحد منهم وهزّه
هزة عنيفة وهو يقول:

— استيقظ . استيقظ من سباتك وأفق ، وافتح عينيك .
ما هذا الجدل في غير طائل؟ والشقشقة والمهاترة في سفاسف؟
تعيشون في الخرافات ، وتؤمنون بالأوثان ، وتحجون للقبور ،
وتلوزون بأموات .

وعثرت قدمه بطفل ملقى على الرصيف ، والتف حوله جموع
من الشحاذين يعرضون عليه عاهات يرتزقون منها رزقاً حلالاً
كأنها من نعم الله عليهم ، أو مهن وصناعات .

وشعر إسماعيل بأن هذه الجموع أشلاء ميتة تطبق على صدره ،
وتكتم أنفاسه ، وتبهظ أعصابه . يصطدم به بعض المارة كأنهم

عنى يتخبطون . هذا الرضا عجز ، وهذه الطينة بلاهة ، وهذا الصبر جبن ، وهذا المرح انحلال .

انفلت إسماعيل من الزحام وجرى إلى الجامع ودخله ، واجتاز الصحن إلى الحرم . المقام يتنفس بدل الهواء أبخرة ثقيلة من عطور البرابرة . هذا هو القنديل قد علق التراب بزجاجه واسودت سلسلته من (هبابه) . تفوح منه رائحة احتراق خانقة . أكثر ما ينبعث منه دخان لا بصيص ضوء . هذا الشعاع إعلان قائم للخرافة والجهل . يحوم في سقف المقام خفاش اقشعر له بدنه . حول المقام أناس كالخشب المسندة ، وقفوا مشلولين متشبثين بالأسوار ، فيهم رجل يستجدى صاحبة المقام شيئاً لم يفهمه إسماعيل ، وإنما وعى أنه يستعديها على خصم له ، ويسألها أن تخرب بيته وتيتم أطفاله . والتفت إسماعيل إلى ركن في المقام فوجد الشيخ درديرى يناول رجلاً معسوب الرأس بمنديل نسائي زجاجة صغيرة في حرص وتستر ، كأنما هي بعض المهربات . لم يملك إسماعيل نفسه . . . فقد وعيه ، وشعر بطنين أجراس عديدة ، وزاغ بصره ، ثم شب ، وأهوى بعصاه على القنديل فخطمه ، وتناثر زجاجه ، وهو يصرخ :

— أنا . . . أنا . . . أنا . . .

ثم لم يستطع أن يتم جملته . (من يدري ماذا كان سيقول ؟)
 هجمت عليه الجموع ، وتهدمت فوقه ، فخر على الأرض مغشى عليه .
 ضربوه ، وداسوه بالأقدام ، وجرح رأسه ، وسال الدم على وجهه ،
 ومزقت ثيابه .

علمنا بعد ذلك أنه أوشك على الموت تحت الأقدام ، لولا أن
 تعرف عليه الشيخ درديري فأنقذه واستخلصه من غضب الناس
 وعنفهم وهو يقول :

— اتركوه ! إننى أعرفه . هذا هو سى اسماعيل ابن الشيخ
 رجب . من حقتنا . اتركوه . ألا ترون أنه (مريوح) .
 واحتمله إلى الدار ووضعوه على الفراش ، واجتمعت الأسرة في
 ليلة الفرح بعودته تبكى صوابه المفقود .

لعن الله اليوم الذى سافرت فيه يا إسماعيل ؟ ليتك ظلت
 بيننا ولم تفسدك أوربا ففقد صوابك ، وتهين أهلك ووطنك
 ودينك .

صكت الأم وجهها ، وتأوه الأب وكنم ألمه وغيطه ، وسكبت
 فاطمة دموعها مدراراً .

ومرت أيام كثيرة وإسماعيل لا يغادر الفراش . ركبته العناد
فأدار وجهه للجدار لا يكلم أحداً ولا يطلب شيئاً ، ولما أفاق
قليلاً بدأ يفكر : هل يعود إلى أوربا ليعيش وسط أناس
يفهمون الحياة ؟ إن الجامعة عرضت عليه منصب مساعد أستاذ
فرفضه بغباوة ، ولعلمهم يقبلونه الآن إذا طلب . ولم لا يتزوج
هناك ويبنى لنفسه أسرة تحت سماء جديدة بعيداً عن هذا الوطن
المنكود ؟ لماذا ترك إنجلترا بريفاً الجميل ، وأمسياتها الهنية ،
وقسوة شتائها الجبار ، وجاء لبلد يفرون فيسه من بعض الرذاذ
كأنما تحقيق بهم نكبة أو يدهمهم طوفان ؟ أما يدرون أن هناك
وجوهاً صامتة ونظرة ثابتة ، تسير تحت المطر والثلوج تقاوم
الأعاصير ؟ وما فائدة الجهاد في بلد كمصر ومع شعب كالمصريين ،
عاشوا في الظل قرونًا طويلة فتذاوقوه واستعذبوه ؟

ثم أخذته غفوة ، واختلط عليه الأمر ، إنه كالطير قد وقع
في فخ ، وأدخلوه القفص ، فهل له من مخرج ؟ يشعر بجسمه
وقد شد إلى هذه الدار التي لا يطيقها ، وربط إلى هذا الميدان

الذى يكرهه ، فمهما حاول فلن يستطيع فككا .

واستيقظ ذات صباح اسماعيل وهو يشعر بنشاط عجيب . فى مثل هذه الأحوال يقفز الشخص من النقيض إلى النقيض فجأة وبلا سبب ظاهر . وخرج من الدار مبكراً وعاد يحمل حقيبة مملوءة بالزجاجات والأربطة والمراد ، وبدأ علاجه لفاطمة كما يقتضيه طبه وعلمه . لقد عالج فى أوربا أكثر من مائة حالة مثلها ، فلم يخنه التوفيق فى واحدة . فلماذا لا ينجح مع فاطمة أيضاً ؟ وسامت الفتاة إليه نفسها مطمئنة ، لايهمها مرضها بقدر مايهمها أن تكون بين يديه موضع عنايته ورفقه ، وتجنبه أبوه وأمه ولم يعودا يعارضانه فى شيء إشفاقاً على صحته .

فى الصباح تجلس فاطمة بين يديه وقبل النوم . ومرّ يوم وثان وثالث ورابع ، وأسبوع وآخر ، وعيون فاطمة على حالها ، ثم إذا بها تسوء فجأة وتلتهب ، ويختلط سوادها بالبياض . ضاعف إسماعيل عنايته ، وكرر أنواع الأدوية ، وقلب جفونها ومسّ ، وقطر ومرهم ، وكشط ومسح ، فما أجدى طبه نفعا . إنه ليس بالجاهل ، يرى أمامه فاطمة اقتربت من العمى ولا ينفذها فى علمه حيلة .

أخذها إلى زملائه في كلية الطب ، وعرضها على الأساتذة ،
فوافقوه على طريقته في العلاج ، ونصحوه بالاستمرار .
فقاوم ، وثابر وأخيراً استيقظت فاطمة على صباح
وهي تفتح عينيها ولا ترى لقد انطفأ آخر بصيص
تتعزى به .

١١

هرب إسماعيل من الدار ، لم يستطع الإقامة فيها وفاطمة
أمامه ، وعماها دليل على عماه . عيون أبيه وأمه تلومانه . ما الذي
حدث ؟ لماذا أخفق ؟ إنه لا يفهم شيئاً . أين يذهب ؟ لم يبدأ
بعد عملاً ، ولا هو بقادر ولا راغب في الالتجاء للحكومة لتعيينه
في إحدى القرى النائية . باع كتبه وبعض الأدوات التي
أحضرها معه من أوروبا ، وسكن في غرفة ضيقة في بنسيون مدام
إفتاليا ، وهي سيدة يونانية بدينة أخذت تستغله منذ أول وقوعه
في يدها ، حتى لتكاد تضع في كشف الحساب تحية الصباح ،
أو تستقصيه خطوتها إذا قامت وفتحت له الباب . حاسبته مرة
على قطعة سكر استزادها في إفطاره . يحس بابتسامتها أصابع

تفتش جيوبه . أهذاها بعض الفطائر والسجائر فأخذتها نهمة
متلهفة ، وفي الصباح سألته أن لا يطيل السهر في غرفته حرصاً
على الكهرباء . لاشك أن الأفرنج في مصر من طينة أخرى غير
التي رآها في أوروبا . كان يجلس نفسه في غرفته فطردته هذه
المعاملة إلى الشوارع يجوبها من الصباح إلى منتصف الليل .
وفي كل ليلة يجد نفسه - ولا يدرى كيف - وسط ميدان السيدة
يجوب حول داره ، يتطلع إلى نوافذها ، يريد أن يرى وجه
فاطمة أو يسمع صوتها ، فاطمة ضحيته ، ومع ذلك لم تثر
لم تشك لم تلمه . أسلمت إليه نفسها عن رضى فأوردها
التلف ، فما قالت لئلا يجها تريث وهكذا يظل واقفاً في
الميدان ، ساعات طويلة ، سارح الذهن ، شارد اللب ، تنسرب
إلى أذنه النداءات القديمة . هي هي لم تتغير . ماذا ؟ لعل كل
والد أورث ابنه مهنته وصوته وموضعه في الميدان ! مساكين !
كل من خدمهم من عليهم واستعجلهم الجزاء أضعافاً مضاعفة .
لم يخدمهم أحد لله أو حباً فيهم ، ومع ذلك جروا وراء كل من
توهوا فيه الإخلاص وتشبهوا بأذياله ، ورفضوا أن يروا ضعفه
أو خيانتة . هذا شعب شاخ فارتد إلى طفولته ، لو وجد من

يقوده لقفز إلى الرجولة من جديد في خطوة واحدة ، فالطريق عنده معهود والمجد قديم ، والذكريات باقية .

— تساءل إسماعيل : هل في أوربا كلها ميدان كالسيدة زينب ؟ هناك أبنية ضخمة جميلة ، وفن راق ، وأناس وحيدون فرادى ، وقتال بالأظافر والأنياب ، وطعن من الخلف ، واستغلال بكل الوسائل . مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وانتهاء النهار . يروحون بها عن أنفسهم كما يروحون عنها بالسينما والتياترو .

ولكن . لا . لا . لا . لو أسلم نفسه لهذا المنطق لأنكر عقله وعلمه . من يستطيع أن ينكر حضارة أوربا وتقدمها ، وذل الشرق وجهله ومرضه وفقره ؟ لقد حكم التاريخ ولا مرداً لحكمه ، ولا سبيل إلى أن ننكر أننا شجرة أينعت وأثمرت زمناً ثم ذوت وهيئات هيئات أن تدب فيها الحياة من جديد .

يفر إسماعيل من الميدان إلى غرفته ويقضى ليلته يفكر كيف يهرب لأوربا من جديد ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى موقفه المعهود بميدان السيدة في مساء الليلة التالية .

١٢

وجاء رمضان فما خطر له أن يصوم . ابتدأ يطيل وقفته في الميدان ويتدبر : في الجو ، في الهواء ، في المخلوقات ، في الجمادات كلها شيء جديد لم يكن فيها من قبل . كأن الوجود خلع ثوبه القديم واكتسى جديداً . علا الكون جو هدنة بعد قتال عنيف . يحدث إسماعيل نفسه : لماذا خاب ؟ لقد عاد من أوربا بجعبة كبيرة محشوة بالعلم ، عند ما يتطلع فيها الآن يجدها فارغة ، ليس لديها على سؤاله جواب . هي أمامه خرساء ضئيلة ، ومع خفتها فقد رآها ثقلت في يده فجأة .

ودار بعينيه في الميدان . وتريثت نظرتيه على الجموع فاحتملتها . وابتدأ يبتسم لبعض النكات والضحكات التي تصل إلى سمعه ، فتذكره هي والنداآت التي يسمعها بأيام صباه ما يظن أن هناك شعباً كالمصريين حافظ على طابعه وميزته ، رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين . (ابن البلد) يمر أمامه كأنه خارج من صفحات (الجبرتي) . اطمأنت نفس إسماعيل وهو يشعر أن تحت أقدامه أرضاً صلبة . ليس أمامه جموع من أشخاص فرادى ،

بل شعب يربطه رباط واحد : هو نوع من الإيمان ،
ثمرة مصاحبة الزمان ، والنضج الطويل على ناره . وعندئذ
بدأت تنطق له الوجوه من جديد بمعان لم يكن يراها من قبل .
هنا وصول فيه طمأنينة وسكينة ، والسلاح مغمد . وهناك نشاط
في قلق وحيرة ، وجلاد لا يزال على أشده ، والسلاح مسنون .
ولم للمقارنة ؟ إن الحب لا يقيس ولا يقارن ، وإذا دخلت المقارنة
من الباب ولى الحب من النافذة .

وحلت ليلة القدر فانتبه لها إسماعيل ، ففي قلبه
لذكريها حنان غريب . ربي على إجلالها والإيمان بفضائلها ،
ومنزلتها بين الليالي . لا يشعر في ليلة أخرى — حتى ولا ليالي
العيد — بمثل ما يشعر به فيها من خشوع وقنوت لله . هي في
ذهنه غرة بيضاء وسط سواد الليالي . كم من مرة رفع فيها بصره
إلى السماء فبهره من النجوم جمال لا يراها تنطق به بقية العام .
وغاب لحظة في أفكاره ، فإذا به ينتبه على صوت شهيق
وزفير عميق يجوبان الميدان . هذا هو سيدى العتريس ولا ريب .
رفع بصره . القبة في غمرة من ضوء يتأرجح يطوف بها . انتفض
إسماعيل من رأسه إلى أخمص قدميه . أين أنت أيها النور الذى

غبت عني دهرًا ؟ مرحبًا بك ! لقد زالت الغشاوة التي كانت
 ترين على قلبي وعيني . وفهمت الآن ما كان خافيًا علي . لا علم
بلا إيمان . إنها لم تكن تؤمن بي ، إنما إيمانها ببركتك أنت
 وكرمك ومنك . ببركتك أنت يا أم هاشم .

ودخل إسماعيل المقام مطاطيء الرأس فأبصره يرقص عليه
 ضوء خمسين شمعة زينت جوانبه ، والشيخ درديري يتناولها
 واحدة واحدة من فتاة طويلة القامة سمراء اللون ، جعدة الشعر .
 هي نعيمة ، قد زال انطباق شفقتها وبدت لها سنان ، وإن
 تكلمت فصف من أسنان بيض كاللؤلؤ ، تكفي النظرة إليها أن
 تنسى وجود كل قبيح .

لقد صبرت وآمنت ، فتاب الله عليها ، وجاءت توفي بنذرها
 بعد سبع سنوات . لم تقنط ، ولم تثر ، ولم تفقد الأمل في
 كرم الله .

أما هو الشاب المتعلم ، الذكي المثقف ، فقد تكبر وثار ،
 وتهجم وهجم ، وتعالى فسقط .

ورفع إسماعيل بصره فإذا القنديل في مكانه يضئ كالعين

المطمئنة التي رأت ، وأدركت ، واستقرت . خيل إليه أن
 القنديل ، وهو يضيء ، يومئ إليه ويتقسم .
 وجاءه الشيخ درديري يسأله عن صحته وأخباره ، فيميل عليه
 إسماعيل يقول :

— هذه ليلة مباركة يا شيخ درديري ، أعطني شيئاً من
 زيت القنديل .

— والله انت بختك كويس . . . دى ليلة القدر ؟ ليلة
 الحضرة كان .

وخرج إسماعيل من الجامع ويده الزجاجية وهو يقول في
 نفسه للميدان وأهله :

— تعالوا جميعاً إلى ! فيكم من آذاني ، ومن كذب على ،
 ومن غشني ، ولكني رغم هذا لا يزال في قلبي مكان لقدارتكم
 وجهلكم وانحطاطكم ، فأنتم مني وأنا منكم . أنا ابن هذا الحى ،
 أنا ابن هذا الميدان . لقد جار عليكم الزمان ، وكلما جار واستبد ،
 كان إعزازي لكم أقوى وأشد .
 ودخل الدار ونادى فاطمة :

— تعالى يا فاطمة ! لا تيأسى من الشفاء . لقد جئت بك ببركة

أم هاشم ستجلى عنك الداء ، وتزيح الأذى ، وترد إليك بصرك
فإذا هو جديد . . .

وشد ضعفيتها واستمر يقول :

وفوق ذلك سأعلمك كيف تأكلين وتشربين ، وكيف
تجلسين وتلبسين ، سأجعلك من بنى آدم .

وعاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان . لم ييأس
عند ما وجد الداء متشبثاً قديماً ، يجادله بعناد ولا يتزحزح .
ثابر واستمر ، ولاحت بارقة الأمل ، فقاطمة تتقدم للشفاء على
يديه يوماً بعد يوم وإذا بها تكسب في آخر العلاج ما تأخرته في
مبدئه ، فهي تقفز أدواره الأخيرة قفزاً .

ولما رآها ذات يوم أمامه سليمة في عافية ، فتش في ذهنه
وقلبه عن الدهشة التي كان يخشاها ، فلم يجدها .

١٣-

وافتح إسماعيل لنفسه عيادة في حى البغالة بجوار
التلال ، في منزل يصلح لكل شيء إلا لاستقبال مرضى
العيون . الزيارة بقرش واحد لا يزيد . ليس من زبائنه متأنقون

ومتأفكات ، بل كلهم فقراء ، حفاة وحافيات ، والغريب أن شهرته استقرت في القرى المجاورة للقاهرة دون القاهرة ذاتها ، فاكتملت داره بالفلاحين والفلاحات ، يجيئون بهدايا من البيض والعسل والبط والدجاج .

كم من عملية شاقة نجحت على يديه ، بوسائل لو رآها طبيب أوربا لشهق عجباً . استمسك من علمه بروحه وأساسه ، وترك التدجيل والمبالغة في الآلات والوسائل . اعتمد على الله ثم على علمه ويديه فبارك الله له في علمه وفي يديه . ما ابتغى الثروة ولا بناء العمارات وشراء الأطنان ، وإنما قصد أن ينال مرضاه الفقراء شفاءهم على يديه .

وتزوج إسماعيل من فاطمة وأنسلها خمسة بنين وست بنات .

وكان في آخر أيامه ضخم الجثة ، أكرش ، أכולا نهما ، كثير الضحك والمزاح والمرح ، ملابسه مهملة ، تتبعثر على أكمامه وبظلولونه آثار رماد سجاثره التي لا ينفك يشعل جديدة من منتهية . وأصيب بالربو فاحتقن وجهه ، وتندى العرق على جبينه ،

وانقلب تنفسه إلى نوع من الموسيقى ، وأصبح من يشاهده لا يدرى أهو متعب أم مستريح . فلما احتبست ضحكاته في حلقه ، اجتمعت في عينيه (فليس هناك عيون أقوى على التعبير من عيون المصدورين) ، يكاد يقفز منها إليك شيطان لعوب ، كلها حب وفهم ، فيها خبث وطيبة ، وتسامح وإعزاز ، وكأنها تقول لك قبل كل شيء :

— ليس كل ما في الوجود أنا وأنت ، هناك جمال وأسرار ومتعة وبهاء . السعيد من أحسها ، فعليك بها عليك . . .
إلى الآن يذكره أهل حى السيدة بالجميل والخير ، ثم يسألون الله له المغفرة . مم ؟ لم يفض إلى أحد بشيء ، وذلك من فرط إعزازهم له . غير أننى فهمت من اللحظات والابتسامات أن عمى ظل طول عمره يحب النساء ، كأن حبه لهن مظهر من تفانيه وحببه للناس جميعاً .

رحمه الله

الساحفة تطير . . .

هذه قصة خيالية ، ولكنها ليست خرافة ، فوقائعها محتملة الحدوث ، وبطلها ليس مستحيلا وجوده ، ومن يدري ؟ ربما كان حياً يرزق ! والواقع أنني أعرفه ، بل تربطني به صلة أقوى وأشهى من القرابة والنسب ، صلة الجوار . فنحن أولاد حارة واحدة ، أسارع وأقول إنها — والحمد لله — حارة مسدودة ، فمثل هذه الحارات وحدها هي التي تعمل في تصفية الود بين الجيران ما تعلمه الزجاجة في تعتيق الشراب . على رأس الحارة تقوم دار داود أفندي — بطل هذه القصة الخيالية — : واجهة طويلة ، بها الباب ، على الحارة ، وواجهة أخرى على الشارع ، مع أنها شبر ونصف شبر عرضاً ، إلا أنها تدل على أن صاحب الدار أوجه وأغنى من بقية السكان الذين لا يستطيعون رؤية الزفات والمواكب و « الخناقات » إلا بثني رقابهم ، ويخطر الوقوع في يد رجال الإسعاف .

وداود أفندى لو خرج من بين سطور هذه القصة الخيالية وعاش، لكان الوحيد بيننا الذى يسكن فى ملكه. والمعروف أن له أيضاً استحقاقاً فى وقف عن أم أمه أو جد جده، فلماذا يتشبث بهذه الدار القديمة فى هذه الحارة المسدودة؟ لو كنت مكانه لانتقلت إلى الحامية أو المنيرة. كلنا نجله لغناه و(نستعبطه) لنزوله إلى مستوانا، ولعلى كنت من بين سكان الحارة أكثرهم ارتباطاً به رغم اختلافنا فى السن والمهنة.

كنت إذا عدت لدارى من المطبعة فى صفرة الشمس، ومررت عليه وهو جالس أمام باب داره، دعانى لمجالسته وتشبث بى كأنه يجد لذة فى أن تصافح يده الناعمة النظيفة يداً صلبة خشنة كيدي. فى هذه الجلسات تأتى لى أن أنصت أو أحثه على القول، حتى وقفت على تاريخ حياته، وليس فيها - مع الأسف - شئ من الأسرار التى تشرئب لها الأذن. هو من أولاد الذوات الذين ورثوا عن وارثين عن وارثين، فكان من المعقول أن يفقدوا طبقة بعد طبقة وجيلاً بعد جيل، فأصبحوا كالحیوان البرمائى لا هو هنا ولا هو هناك. ولذلك فهم أسرع انقراضاً. هو بالنسبة إلينا غنى ولكنه فى الواقع فقير. ومع ذلك فهو يعتز بأصل لا يغنيه فيستريح

ولا يسلكه في الفقراء فيريح . . . وماذا يفعل وهو من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ابن عز؟ في كرمه وجهله ، في طبيئته مع معارفه وازوراره بل نفوره من الغرباء . تجافيه عن العالم الخارجى فيه تمسك بالماضى كأنه يعيش من وراء سد الصين . له قصص شائقة عن تحوت الحمولى وعثمان . بين الحين والآخر يخرج علبة بيكار بونات السوداء ويسف منها قليلاً دواء لمعدته . هو متأنق لا يأكل إلا أخف الطعام في أغلب أيامه . وككل أولاد الذوات الذين تربوا في آثار عز سالف ، وجدت فيه مع الكبرياء والأنفة كثيراً من أخلاق الصبيان وقلة دراية بالحياة في معتركاتها .

أذكر هذا لأننى كنت جالساً معه في إحدى الأمسيات فرأيت صبي شيخ الحارة قادماً علينا مجدداً في خطواته ساهم النظرة كأنه في غيبوبة . هو زنجى وأغلب الظن أنه ولد في بوزة أو كان مهده قرعة . وجه نحس بشفته الغليظة الباذنجانية ، وعيونه المختبئة تحت جفونه المرتخية تبدو كأن خرزة الزرقاء لا تفرق عن عيون التيس في جمودها ومكرها ، حتى إذا وقف أمامنا أخرج من جيب سترته ورقة صغيرة متسخة وسلمها لداود افندى . ما هذه ؟ دارت نظرتى خلسة في لف حول كتفه ، ووقعت على

الورقة، فوجدت مكتوباً عليها (١٩ أحوال) .

— حضرتك مطلوب في القسم يا كر .

— ليه ؟

لا جواب .

— عند مين ؟

لا جواب .

تحرك الأسود وسار ، فعزرائيل لا يترى ليبيكي مع أهالي الميت . ثم ما كاد يسير خطوتين حتى أفاق لنفسه وعاد إلينا من جديد ، فأصول اللطمة أن تكون من قلمين ، ومال بوجهه — وجه الوابور — على أذن داود افندى :

— عمى يرجوك ويرجوك ألا تتأخر .

ثم كان فص ملح وذاب .

داود افندى قلق ، حائر . كل حين وآخر يسألني : يا ترى لماذا ؟ لم أذهب للقسم في حياتي ، وأشد ما أكره أن أتخطى بابه وأواجه هذا الصنف المسمى رجال البوليس . أعوذ بالله ! من الذي اشتكاني ؟ هل أتيت جرماً دون أن أعلم ؟

كنت غير ملق بالي إلى همه التافه ، ولكنني انبهرت وعجبت

من أن كثيراً من الناس الطيبين لا يسمون في بعض الأحيان
من الوهم والشك في براءة ماضيهم . الآن في قلوبهم نازعاً
خفياً إلى الإجرام ، فتختلط في أذهانهم الرغبة بالحقيقة ، أم هم
يستيقظون فجأة إلى أنه ليس هناك دليل واحد على أن الحياة
غير مزدوجة ؟!

قد يكون الشخص الواحد مع الناس يذهب ويحجى ، ولكنه
لا يستطيع أن يكون واثقاً كل الوثوق من أن ليس له في الوقت
نفسه حياة أخرى مهمة كالأحلام ، لا يشعر بها كما لا يشعر بما
حوله من ركبه الدوار : حياة تتصل طي ضباب كثيف بحياة
أشد غموضاً لكائنات أخرى

كنت أود أن أهدى مخاوفه وأطمئنه ، لكنني خشيت أن
يعود سريعاً إلى الحديث الممل العادى الذى شبعته منه ليلة بعد
ليلة . وخفت أكثر أن ينقطع الحديث سريعاً ، لأن الكلمة
الطيبة قلما تقبل المطم . وأحسست برغبة في البقاء على رأس
الحارة ، وقد طابت الجلوسة وشمطنا الغروب بسحره . في كل
مرة أنتبه للحظة سقطرة قرن الشمس ، أشعر أنها شهقة دوامة تحتضر
كان انفراجها النهار وانطباقها الليل . فأخذت — علم الله

لا لغرض إلا إطالة الجلسة الظريفة — أستثيره وأحرك مخاوفه .
ونقلت الحديث من البوليس وفظاظته إلى البلطجية وأفاعيلهم .
رئيسى فى المطبعة له شهر فى الحبس ولا يدرى لماذا . وآخر أتهمه
بلطجى بالتزوير ليفرض عليه ضريبة — وهؤلاء البلطجية حيل
لا يصل إلى قرارها الشيطان إن وصل . وربما سبقوا بالشكوى
ليستولوا على أجر التصالح . . . ومن يدرى ! ربما وجدوا فيك
ياد اود أفندى بطيبتك خير صيد فمدوا حولك حبالهم . ثم إننى
لست مطمئناً إلى (١٩ أحوال) هذه ! ووجه صبى شيخ الحارة ينم
عن شر كبير ، ولا بد أنه عالم بشيء لم يرد الإفضاء به إلينا . ولم
أقم إلا بعد أن (استوى) داود أفندى ، وبعد أن استحلقتنى أن أمر
عليه فى الصباح لنذهب إلى القسم معاً



لا أدري هل تأخرت فى النوم عفواً أم أحببت أن أستريح
من سهرة الأمس . استيقظت وقد ارتفعت الشمس ، فخرجت من الحارة
مهرولاً كأننى هارب . ومع ذلك تشبث نظرى لحظة وأنا أجرى
بباب بيت داود أفندى ، وخيل لى أن مطرقة — وهى من نحاس

على شكل يد مضمومة ، تنبسط وتشير بسبابتها إلى .. إلا أن
لمعانها ذكرني سور مقام أم هاشم ، وتعلق المهزومين والمرضى
والمنكوبين بقضبانها . وانقبض قلبي خوفاً على صديق داود أفندي .
فمن نحس هذا الزمان ولؤمه أن يهان رجل طيب مسالم مثله ويكون
مثله عند دخول القسم كمثل حيوان أليف آكل كل عشب يجد
نفسه فجأة في غابة تعج بكل ذى ظفر وناب . مع ذلك — فهذا
شأن الحياة واكتساب الرزق بعرق الجبين وقشف اليدين —
نسيته ونسيت أوهامه وأنا منمّح مفقود وسط آلات المطبعة وهي
تضج وتضطجك في حركات مفاجئة منتظمة كأنها نفثات مقعد
محموم .. انتهت إلى ذكره وأنا أمام داره في عودتي للحارة .
رأيت في انتظاري جالساً على كرسية متلفعاً بعباءته . عندما
قاربت حمدت الله أنني وجدته في حدة وغضب أنسياء خلفي
لوعدي . ومع ذلك ما كاد يكلمني حتى فهمت مع الأسف
أن لعبتي بالأمس في إثارة مخاوفه وتحريضه على رجال
البوليس قد أدت إلى النتيجة التي كنت أريدها ولا أتوقعها ،
أستغفر الله ، أقصد أتوقعها ولا أريدها . كانت الدعوة إلى
القسم في شأن مخالفة هينة : إلقاء ماء قذر في الطريق .

ومع ذلك كان الجاويش من الفضاظة وقلة الأدب ، وداود
افندى من الكبرياء وقلة الصبر ، أن وقعت الواقعة بينهما . ثم لم
أستطع أن أفهم من داود افندى ما حصل بالضبط . بكل صعوبة
وبعد تردد كبير ، اعترف أن الجاويش هزّه هزة أوقعت طربوشه
على الأرض أمام عدد كبير من الناس ، بينهم بعض من يعرفونه
من أهالي الحى . حاولت أن أخفف حدته لكنه قاطعنى قائلاً :
— لازم أطلب رد شرفى

تطلعت إلى عينيه فوجدت فيها لا أمارات الغضب بل
أضواء سعادة كبيرة . أردت أن أقوم بواجبي وأصرفه عن التفكير
الكثير فى أمر تافه ، لكننى عدلت سريعاً لأننى رأيت زورقه قد
بدأ يتحرك من المستنقع ليخرج إلى البحر العالى بأمواجه . وانقطع
حديثه المبتذل ، وأخذ يتكلم لأول مرة كلاماً لا يسير على قضيبين
مرسومين . خفت عليه أن يعود إلى ركوده وابتذاله فهدتني
الحيلة أن أقول له :

— رد شرفك وطالب بتعويض قرش صاغ واحد !
قلت لها لأننى أعلم أن لهذه الجملة سحراً غريباً يخلب أذهان عامة
الشعب والبعيدين عن المحاكم والقوانين . ولعل أكثر الحقائق

بريقاً وخبلاً للأذهان ما كان أساسها التناقض . فكيف يشور
من يغضب للإهانة ومع ذلك تنتهى ثورته بأن يثمن شرفه
بقرش واحد ؟ وأى شرف هذا الذى يقدر بقرش ؟ أثرت هذه
الجملة أثرها فى داود افندى، وزاد عزماً وإصراراً على الحصول على
هذا القرش الواحد .

قضيت معه ليلتين نتشاور فى كيفية رفع الدعوى ، ولكن من
من المحامين يمكن أن توكل إليه القضية ويصون أمانتها . وقد
وقع اختيارنا فى أول الأمر على أفضل المحامين ، ولكنه باتفاق
الجميع ليس أعلمهم . أما أعلمهم فليس أقواهم سلطاناً ونفوذاً لدى
رجال الحكم ، وأقواهم سلطاناً ونفوذاً ليس أكثرهم أمانة . وأخيراً
اتفقنا على محام يسكن بالقرب منا ، على الأقل نستطيع أن نتردد
عليه كل يوم بلا مشقة . اخترناه لا لفصاحته ولا لعلمه ولا لسلطاناه
بل لبخته . نعم لبخته ، فكل من اتصل به يؤكد أن سرّاً باتعاً
يسنده فلا يتولى قضية إلا كسبها . أغلب زبائنه من عامة الشعب
الصالحين .

عرضنا عليه الدعوى فأكد أنها رابحة وفى أقرب ميعاد ،
وأن الجاويش سيجازى أشد جزاء ، وفوق ذلك يعاقب إدارياً .

وشرب داود أفندي من معسول كلامه ، فتخدرت أعصابه ودفع
مقدم الأتاعاب جنبيين كالحلاوة .

وحددت الجلسة بعد ٤٠ يوماً .

وأخيراً ها هو القدر يتمخض بميعاد يفوز به داود أفندي ،
عمود تلغراف لولاه ماشعر راكب القطار بمر كتمه ولا بسر عته .

دفعته دفعاً وسط الزحام — فهو لحمة — إلى قاعة الجلسة . وأنا
متلهف إلى أن أرى كيف يكون موقفه وتلعشه بين يدي القاضي
ومواجهته للجأوش خصمه ثم عدوه . و « انحسرنّا » في مقعد
وجلسنا ننظر دورنا . كنت أتمنى ألا يكون داود أفندي شخصاً
من دم ولحم ، بل شخصية وهمية وليدة سطور هذه القصة الخيالية ،
لأنني تأملت وأنا أراه ممتقع اللون مصفراً مرتجف اليدين . جلس
بجانبي كله عيون وآذان وليس منه لسانه . أخذت أراقبه من
طرف عيني ، فوجدته كالقشة في بحر ينعكس فيها أقل اضطراب
لسطحه علواً وهبوطاً ومداً وجزراً . اشتمله جو الجلسة من رأسه

إلى أخمص قدميه ، وشد عليه قبضته فلا يستطيع خلاصاً . كل ما يسمعه جديد ، غريب ، رنان ، أخاذ ، وأى سحر أقوى من سحر قاعة الجلسة ! صوت الجمهور بين همس ووجوم ، ومحاورات القاضى والمحامين والنيابة تنقله إلى عالم غير عالمه . ثم فجأة وبدون سبب ظاهر ينجم على الجميع صمت عجيب . فيشعر أنه يسقط من علو شاهق وسط الفضاء . ثم من جديد يعود التيار إلى أشده وإذا به محمول محلق يكاد يفقد وعيه : القفص ، والجنود ، نداء الحاجب ، تلك التعابير القضائية التى تنحنى لها الجباه إجلالاً وهى ليست إلا ألفاظاً !

لم يحضر الحامى عنا ، ونودى داود أفندى ونظرت دعواه ، ثم أجلت فى أقل من لمح البصر .

فدفعته مرة أخرى — كألهم الثقيل — وسط الزحام خارج الجلسة . وما كاد يتخطى بابها حتى بلغ ريقه لأول مرة . وماذا كان يظن وهو جالس طول عمره فوق الرصيف ؟ لم يثر فى اضطرابه أقل شفقة ، بل شعرت أنه من العدل أن يدفع ثمن تعاليه وابتعاده عن محيط الحياة التى نعيشها نحن المكردون المتصبين عرقاً فى زحمة الحياة ، ولكنى ما كدت أضع ذراعى

في ذراعه لأقوده إلى القهوة المواجهة للمحكمة ، حتى رق قلبي
وملاءه عطف وحنان لم يعرفهما لأحد من قبل . وجلسنا وعلى
جانبينا موائد اكتظت بوكلاء المحامين وسماسرتهم ، وكنت
على صلة ببعضهم ، فدعوتهم للجلوس معنا وعرفتهم بصاحبي ، ولما
افترقنا على رأس الحارة لم يقل لي داود أفندي كعادته « نتقابل
هنا » بل قال :

— قابلني بكرة على القهوة إياها

دفع داود أفندي جنهين آخرين المحامي ليضمن حضوره
في الجلسة القادمة ، كما أرضى الشهود بما وسعه كرمه .
وكنت قد غبت عنه بضعة أيام — ولعلها أسابيع — ولما
عدت إليه وجدته على القهوة إياها محاطاً بأصدقائه ! ! من وكلاء
المحامين ، وكلهم يحتسى القهوة والشاي ، ويدخن النارجيلة على
حسابه . وإذا به يشترك معهم في أحاديث مهنتهم وتجربى على
لسانه نفس الألفاظ القضائية التي يتمشدقون بها ، بل ويدخل
معههم إلى الجلسة في بعض الأحيان . لما رأيته في هذه الحال أردت
أن أساعده وأوجد له ما يشغله ، فسعيت وعرفته بقريب لي معدم ،
منعه فقره من رفع دعوى المطالبة بملك واسع يظلمه فيه رجل

ذو بطش وسلطان . أردت أن أخدم الاثنين ، ويكفيني ثواب
المسعى . اتفق معه داود افندى على أن يقوم هو بالإتفاق على
الدعوى نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما . وأمر إلى داود
افندى أنه سيرهن مصاغ زوجته ليصرف على الدعوى .

بعد يومين رأيتته يحمل دوسيهاً في يده سائراً مجدداً إلى
الحكمة



حدث بعد ذلك أنني نسيت جاري العزيز داود افندى
نسياناً تاماً ، لأننى كنت قد نجحت في تحقيق أمنية طالما كتمتها
في صدري ، ولازمتنى الليالى تنغص على نومى وأكلى وشربى .
كنت أريد أن أتخلص من وسط عمال اليومية والتحق بطبقة
الأفندية أصحاب المرتبات الشهرية . فكم أبليت نعلى ، وأحفيت
قدمى ، وكم أرقمت ماء وجهى وجف لسانى — ويفنى قولى هذا
عن التفاصيل — حتى نلت رغبتى وعينت حاجباً أمام باب قلم
في وزارة . تخلصت من ماضى الكريه كله ، وتخلصت أيضاً من
الحارة المسدودة اللعينة ، وسكنت المنيرة

مضى على في وظيفتي زمن ، وذات يوم وأنا عائد من سوق الخضار وفي يدي قرطاس بلح آكل منه ، مررت على مطعم ، ولشد ما دهشت إذ وجدت فيه داود أفندي جالسا أمام طبق فول مدمس . داود أفندي «بجلبية» وجا كتة تجمع أصابعه بلممة حبات الفول وتعجنها في الزيت ثم تحملها كتلة واحدة — كالكرة — إلى فمه ، ويتجشأ برائحة البصل الأخضر والفجل . أشهد الله أن قلبي انشرح وأنتى سررت كل السرور لتحسن صحته ولتخلصه من أمراض معدته . وأشهد الله أنني شعرت بموجة شوق قوية تملأني ، فجريت نحوه ومددت له يدي مشتاقاً يكاد الفرح يقفز من كياني قفزاً .

— داود أفندي ؟ سلامت ، ازيك !

ولكنه ترك يدي ولم يأخذها ، ولما رفع إلى عينيه لم تستقر نظرته على وجهي حتى رأيتها تمتلئ بأقصى ما تستطيع العين أن تستوعبه من الكراهية والتأفف والبغض ، وإذا به يصرخ في وجهي ويشيح عني :

— روح . الله يخرب بيتك زى ما خربت بيتي !

تملكتني الحيرة فسمرت في مكاني : أي جرم أتيت ؟ وماذا

فعلت؟ لا أذكر إلا أنني كنت دائماً تحت أمره كأنني عكازه .
كنت أجلس منه مجلس الولد من أبيه ، وأترك عملي لأكون في
خدمته ، ولا أذكر أنني خنته أو آذيتة أو أضللتة .

ولكن هذه المحاولات لم تفلح في سند سياج كنت أقيمه
بكل جهدي طول الوقت لتتحصن وراءه نفسي ، ولو لتعيش في
دنيا من أوهامها في حمى من شك خفي بدأ يدب في قلبي . .
وإذا بالسياج يرغني وينهد ، وتبرز لي من ورائه تحملي في وجهي
كعيون البوم ، تهمة بشعة كالعدم ، قاسية كالقدر المترصد ،
راسخة كالأزل .

(كن طيباً ما أمكنك ، حذراً ما استطعت ، فلن تكون
يدك إلا أذى ولا قدمك إلا سوءاً !) . شعرت في جسمي ببرودة
الموت ، وعشت زمناً أرثي لحالي وأقول : يا لي من مسكين ،
ولكن سرعان ما أنفت هذه الضعة ، وأعدت نفسي للحياة ،
والحياة تقوى على أقوى الآلام ! ، بقولي لنفسى :

— هون عليك . . . أين فجيعتك ؟ هذه قصة خيالية ،
ولكنها ليست خرافة
وهكذا من أول وجديد

كنا ثلاثة أيتام ...

ها هو قد تزوج ، وها هو يقبل زوجته ، في كل قبلة يدعو
الله أن يرزقه ولداً صالحاً تتجدد من بذرة شجرة أسرة ، ليست
— وهنا العجب — بذات جاه أو ثراء ، وجاء يومه المرجو
وسلمته القابلة لفة لها لين العجين ورأحتة . وقالت :
— بنت . بنت . هذه نعمة من الله ...
فسمّاها نعات .

لم يفهم أن أغلب الرجاء طمع ، وأن بعض الدعاء جحود
وتدخل في الملكوت . . وعاد إلى سؤال ربه في صلاته ، وأطال
تضرعه في ركوعه وسجوده .
وجاء يومه المرتقب ، بين الخشية والأمل ، وسلمته القابلة
لفة تتلوى كالخشرة ، وقالت :
— بنت . بنت . هذه عطية من الله ...
فسمّى بنته الثانية عطيات .

« نعمات » و « عطيات » لم تكن أسماء بمثل ما هي تلميح بأن الرضا عن اضطرار ، وأن انصياع اليوم مرتبط بالرجاء في تحقيق الوعد غداً . حرك الأب الأبتر كل ما في قلبه من شعل الإيمان ، وتوجه إلى الله بكل ما قدر عليه من خشوع ، وكرر ابتهاله وتذله . فاستجيب في يوم دعاؤه . واستقر في بطن الأم سرّ الصبي الموعود .

حينئذ مات أبي ، وهو لا يعلم أنه فاز بأمنيته — أوفى جهده على الغاية ، وتحقق الغرض من وجوده ، وكان ثمن انطلاق السهم تمزق الوتر المشدود ، وإن سعادة الأفراد لا وزن لها في تسلسل الأجيال .

وهكذا ولدتُ يتيماً ، ومع ذلك لست بغريب عن أبي . كل مرة أدخل فيها غرفة الاستقبال وتقع عيني على صورته الفوتوغرافية الشاحبة معلقة على الجدار ، أراه يبتسم لى ويكاد يناديني . . .



ولم أكد أوظف بالحكومة وأقبض أول مرتب حتى ماتت أمي ، كأنها لم تقو على فراقنا إلا بعد أن اطمأنت على . . . سرت

وحيداً منفرداً خلف النعش ، أما شقيقتاي ، نعمات وعطيات
 فقد بقيتا تنوحان وتلطان الحدود وهما متدليتان من النوافذ .
 رأيت أكثر المشيعين يتطلعون إلى وجوههما ونهودهما من
 أطراف العيون . في تلك اللحظة استفتت ، وأدركت أنني
 أصبحت رب أسرة . أية أسرة ! فتاتان جميلتان نعم جميلتان ،
 وإن لم تصح شهادتي ، ليس لهما غيري . قومت من ظهري
 المنحني ، وسرت رافع الرأس ، وتقبلت — على القبر — دون
 ثورة أو غضب وكره ، عبارات التشجيع والعزاء والتوصية بالصبر
 والرجولة .



ثم مرت الأيام ، ودرج النسيان بأذياله على الماضي وأهله ،
 وإذا بي في صحبة شقيقتي من أهنأ الناس ثلاثتنا في مستقبل
 الشباب ورونقه ، في مرجه وتزقه ، في جريه وقفزه ، في عطره
 ونضرتة ، تساو طليق ، لا تضغطه شيخوخة مولية ، ولا تأخذ
 بخناقه طفولة هاجمة . من حسن الحظ أننا لم نكون في سعة تكفي
 للانفاق على ثلاثتنا ، فقدّم الصبي وحجزت البناتان في الدار ،
 وكذلك نجاها الله من الجامعة بأدائها وفلسفتها ، وسلم لهما عقل

غير ملتويض في الفضاء ، وطبع غير متكاف . كل منهما نمت
أشئ ، جسماً وعقلاً . لا يعكر حديثنا نقاش أو جدال . صحبة
لم يترك لي صفاؤها مطمئناً . . فمن مثلي من الرجال تحوطه
فتاتان — لا فتاة واحدة — بكل ما وسعهما من عناية
وإخلاص ؟ لا تقل ملابسي هنداماً ولا أكلتي جودة عن زملائي
المتزوجين ، دون أن أدفع ثمن هذه النعمة بالكدر والهم والضيق
الذي أتبينه على وجوههم كل صباح في المكتب . . كانت نفسي
قاعة وجسمي سعيداً . نعيش متلاصقين كصغار القطط وهن عُمى .
حلقتنا كاملة : هذه نعمات لبسها دور الأم الحنون فلبسته . هي
أكثرنا رزاة واتزاناً . في يدها مصروف البيت وتدير خزينه .
وبقيت عطيات « دلوعتنا الشعنونة » التي من أجلها نحصر —
في خفية منها — على تذكر أقل رغبة لها ترد عرضاً في سياق
حديثها ، وننتظر إلى أن تحين الفرصة ، فنجد أكبر اللذة في تعب
البحث عن طلبتها وفي التحايل على كتمان أمرها ، إلى أن تعثر
عليها في تمام مناسبتها ، فنضحك معها لدهشتها ، ونشاركها
الفرح بهديتنا . . وفي بعض الأحيان أضع رأسي على ركة
عطيات فتعبت بأصابعها الطويلة في شعري ، كأُم القرد تقي

رأسه وتناغيه . . بجانبنا نعمات تغمرنا بابتساماتها الحلوة وهي
تخطط لى بعض ملابسى الداخلية . لو تركنا لأنفسنا لعشنا سعداء
فى ههنا يكمل بعضنا بعضاً ، ولكن كيف يتأتى ذلك وفى الناس
إخلاص ومحبة ورغبة فى مساعدة الغير ، وتطوع لعمل الخير
والتحريض عليه !!

بدأ أقاربى ومعارفى يهمسون لى : « متى تزوج أختيك ؟ لقد
آن الأوان ! » ثم فى مرة أخرى : « كيف تأمل أن تعثر لهما على
زوج صالح وأنت قابع فى داركم القديمة الخبثية بدرب الحجر من
وراء حارة التمساح لا تزور ولا تزار . . أم تراك معتمداً على
الخاطبة ومقابلها ؟ »

أخذت وأنا خائف أنطلع إلى عيون شقيقتى على غفلة منهما
وأسأل نفسى :

— هل هذه عيون ظامئة جائعة ؟

خيّل إلى فى بعض الأحيان أن نظرتهما الناطقة تحرس
بجأة وتشرد فى الفضاء ، وأن تحت وشى هذه النظرات الجميلة
يختبئ قزم من الحزن والحرمان له عين البوم وأسنان الفأر وعناد

الثور ونزق الجدى .. أيها الشيطان الأسود ! مهما تراوغ فلن
نخفي على بعد الآن !

سهرت الليل أفكر . وأنار الفجر ظلام الليل و بصيرتى .
فاستبانة لى الحقيقة على ضوء النهار ، جسداً عارماً قبيحاً عارياً
قوى العضلات . لا فائدة من مغالطة الطبيعة . ولا بد
من التضحية وتحمل الوحدة ، والصبر على مرارة التسليم
والانسحاب ... رسمت لنفسى برنامجاً وصممت على تنفيذه
دون استشارة أحد حتى شقيقتى . لن ألتجأ إلى الأقارب ، فهم
— كما يقول المثل — عقارب ، ولا إلى الخاطبة ، فهى سمسار
بين عجزه ، أليست للمشكلة أن الزوج الصالح لم يأت إلينا ؟ إذا
فلنبحث عنه ، ولنذهب إليه ، وفي موطنه ، ولو أدى الأمر إلى
اصطياده احتيالاً . ساعد الشبكة الماكرة بنفسى ، وألقيها
فى طريقه بيدي . هذا صيد حلال . وأى شئ أعظم ثواباً عند الله
من تدبير زوج صالح لأعز الناس إلى ؟

بعت بعض الحلى ، وسحبت كل نقودى المودعة بصندوق
التوفير ، وأجرت شقة كالحق — ولكنها غالية على ! —
فى جاردن سیتی ، واشتریت لها بعض الأثاث من معارض

سليمان باشا . عن إذنك يا درب الحجر ! لقد ألغى الرق فأعْتَقْنَا
 لوجه الله ! وأنت أيتها الصناديق والشكجيات ، وأنت أيتها
 الشمعدانات والمرايا المذهبة ، وأنت أيتها الكنابات والمقاعد
 المطعمة بالصدف ، منك إلى صالة المزاد خطوة مباركة ! وداعاً .
 وداعاً . فنحن في دار كل مقام فيها قصير ، وكل صحبة إلى فراق .
 أنتظرين أن أرثيك بدمعة ؟ من تلفت إلى الماضي لم تكفه
 دموع الخنساء ! أتسأليننا البكاء ؟ بل أسألينا النسيان ، والنسيان
 السريع .

ولما دخلت العمارة ، قام لنا بوابها : بربرى له وقار
 القديسين وهيبة الأباطرة . ولما دلفت إلى المصعد بعد سلام قليلة
 فرشت بالبساط وزينت بأصص الزهر ، ولما سمعت الوكيل يقول :
 « هنا الأتريه ، وهنا الأوفيس » اطمأن قلبي ، وقلت : قد
 أحكمت الشبكة ، فلننتظر صابرين ، وعلى الله توكلنا . . .



عشنا غرباء زمناً ، ثم بدأنا نألف الحى وأصواته ، ووجوه
 سكانه وعاداتهم . خرجت من الشقة ذات صباح فإذا بي أواجه
 صاحب الشقة المقابلة خارجاً بدوره . واحتوانا المصعد معاً

لا أدري لماذا اطمأن قلبي إليه . ابتسامة مني ، وكنت أنا
البادئ ، وابتسامة منه ، وصلت الحديث بيننا ، هو موظف
كبير ، على المعاش . دعوت الله أن يكون له ابن صالح ، أو ابن
أنح ، أو ابن أخت ، أو صديق ، أو معرفة ، وقلت : لعلهم إذا
رأوا أخلاقنا وشرفنا ، وخبروا أحوالنا واستقامتنا ، تقدموا
بالخطبة . دعوته لزيارتنا ، فإذا به — لشدة دهشتي — يقبل
بسهولة . جاء وزوجته ، سيدة نصف ، حنت على أختي حنو الأم
الرؤوم ، دعتنا لشرب الشاي عندهم وقالت وهي تنصرف :
— عسى أن تكون ابنتي سنية قد عادت من الاسكندرية
فأقدمها إليكم .

حاولت ألا يظهر غمى على وجهي . كنت أنتظر أسماء رجال
لا نساء . وقلت في نفسي : « فلتكن زيارتنا الأولى هي الأخيرة ،
فلم أجيء هنا من أجل التزاور مع عائلة ليس لديها رجال » .
وذهبت في الموعد المضروب ، وأنا متخرج ضيق الصدر . . .
وجاءت سنية ، أيها الناس ! لا تبخلوا على بكرمكم وطيبكم .
أشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة مثلي ، ولا تبسموا إذا
وصفت لكم اضطرابي أمامها وحيرتي .

ماذا أقول ؟ كان اللقاء هو بدء تاريخ حياتي ، ما قبله جاهلية
 معتمة ، وما بعده نور وإشراق . أحدثها وأسارقها النظر ، وإلا
 كيف تقوى عيناي العاشيتان على مواجهة هذا الجمال كله ؟
 كنت بجانبها كالجرو المبتل يوضع في الشمس . . . ما كنت
 أدرك قبل رؤيتها أن اللباس من الفنون الجميلة . . كأن جسدها
 تمنى فكان ثوبها تحقيق أميئته ؛ وكأن الثوب نفسه اشتهى ،
 فكان هذا الجسد خليلته التي وجد لديها السكينة وطعم الحياة ..
 ثوب كم أبدي وكم أخفي ! استدار عليها يكاد يأسرهما ، فإذا
 أسيرته طليقة تتحكم فيه . هابط إلى أن يقف حيث يتأرجح
 الذيل بين الكتان والإفصاح ، وحذاء تعنيك أناقته عن التساؤل
 عما يداريه . كل شعرة في رأسها تسابقت إليها واصطففت راضية
 بجانب أختها أو التفت معها أو من تحتها ، عالمة أنها تشارك
 في زينة ، سعيدة ناعمة بالدور الذي رسم لها . لو تهشم هذا الجسد
 وتفتت ألف كسرة لما خُدش جماله ، وضحكت فأسمعتني ضحكة تختصر
 العمر كله ، فيها سذاجة الطفولة ، ومرح الصبا ، ومرارة
 التجربة . . فم متهم وعيون بريئة . . لم تهتم بي كثيراً . وما
 وجهت لي غير نظرة أو نظرتين . ومع ذلك عند ما انصرفت —

وأنا أجزّ رجليّ جرّاً — كنت شاعراً بتعب من جسّ دقيق
 تناول روحي وجسدي بأصابع توهم أنها تمسح وتربت وهي
 تقدس وتنقب . . شعرت أنني عُرّيت ، وقُلِّبت ظهراً لبطن ،
 وخُصّت واختبرت ، قيسّت قامتي ، وسُبرت ، وزُنْتُ ، وكيّلتُ
 عُرِكت وعُصّضت بالأسنان ورُنِّنت على الأرض . . حُرِكت
 أوتار روحي واستمع لموسيقاها . . ثم استخرج من مخبئه كتابي
 الدفين ، فروجعت في النور صفحاته وقرئت سطره كلمة كلمة .
 كل هذا والعيون مترددة والشفاه مستفهمة . . ثم أصدرت حكماً
 لن يكون له نقض أو إرام إلى آخر حياتها وحياتي .

أيها الناس ! أسفّقوا علىّ مرة أخرى ولا تبتسموا من جديد
 إذا قلت لكم إنني تعبت حقاً ، ولكنني مع ذلك وجدت في هذا
 التعب لذة كبرى . . . لم أخش حكمها . بل سرّني أنها تناولتني
 بالفحص . كنت كالمرّيض لا يسعده أمل الشفاء بقدر ما يسعده
 تعلقه بين يدي طبيب مدل ممتنع وراء أجر باهظ . . انصرفت
 وأنا لا أزال ألوك في فمي لذة مذاقها . . ولما دخلت شقّتنا ،
 حانت مني التفاتة إلى أختي فقلت في نفسي — والأسي يملؤها —
 ما ينقصهما والله إلا أن تطول الصغيرة ، ويغطي الجورب السميكة

الركبة ، لتبدوا شابتين من الريف . . من غد إن شاء الله سأعني بتوجيههما إلى الاعتناء بهندامهما، وزيتهما وإلا كان فشل برنامجي المرسوم محققا .

ولكنني في غدٍ نسيتُ كلَّ شيءٍ إلا سنية ! حاولت أن أجد مسوغاً لتكرار الزيارة فلم أوفق ، بل وجدت باب الشقة موصداً في وجهي . الأنهم رأوا لعابي يسيل وأنا أحرق في ابتهم خلصة فرثوا لحالي وأرادوا تجنيبي التعلق بسراب ؟ لما شعرت أنهم يتعمدون صدّي زاد هياجي ، فإذا بي - وأنا المعروف باتزاني وأدبي - أفقد كل سيطرة على نفسي ، ورأيتني لشدة دهشتي آتي بحركات وتصرفات لا تصدر إلا عن أطفال أو مجانين . حاولت أن أستمع برشوة الخدم فضحكوا مني . تصديت لها في الطريق . ألقيت أمامها رسائلني . تتبعها كظلمها . كل هذا وهي لا تتكرم عليّ بكلمة أو بابتسامة . أقسم لكم أنني لا أدري كم من الزمن مرّ عليّ وأنا في هذه الحالة ، قد يكون أسبوعاً ، وقد يكون شهراً . وأخيراً ضاق ذرعي وأحسست أن العذاب لو طال لقصفتي الألم ودمرت قلبي وقضى عليّ . هجمت عليها ذات يوم وهي

سائرة وأمسكتها من ذراعها . لمسة فيها رعشة الغيظ والأمل .
وقلت لها صارخاً :

— ماذا تظنين ؟ أجرى وراءك طول العمر ؟ أليس لى عمل
فى هذه الدنيا إلا أن أسير فى ركاب حضرتك ؟ العفو ! الآن
أريد كلمة واحدة : نعم أو لا .

فنظرت إلىّ وابتسمت

زرت معها معالم القاهرة فكأننى سائح يجوس خلال مدينة
مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل . . . كنت أتلو كاللبغاء
قصيدة النيل فشرحتها لى سنية بيتاً بيتاً ، وأفهمتنى جمال معانيها
ولفتاتها . فى حديقة الحيوان ، التى طالما زرتها فلم أر شيئاً ، كلمتنى
لأول مرة ، من وراء أعمدة السجن المؤبدة ، عيون صافية جميلة
حزينة ، وشكت إلىّ وحدتها وآلامها . الفضل لسنية فى الراحة
الكبرى التى شملت نفسى عند ما آخيتهم جميعاً . . . من زحف
منهم أوطار ، أودبّ على أربع . . .
قالت لى ذات يوم :

— ما العمل إذا ؟ إن بابا يرفض بتاتاً لأنك موظف صغير ،

ومرتبك قليل ، ولا يدري كيف تقوى بهذا المرتب على المعيشة
في جاردن سیتی . . .

ولما رأنتى مطرق الرأس غمًا ، أضافت تقول :
— ولكن مآما في صفتي . . .

وكان القرار أن أنتقل إلى مسكنهم ، على أن تذهب نعمات
وعطيات للإقامة مع إحدى خالاتي . . .

كلهم قالوا لي إنني ساعة « كتب الكتاب » كنت شارد
اللب ، ثم إذا بي فجأة أبسم ابتسامة خفيفة ، ظنوها من حرج
سؤال المأذون الصريح . لا يعلمون أنني — ولا أدري كيف —
انتبهت إذ ذاك فحسب ، إلى قسوة الفكاهة ، وهي تنطبق على ،
في المثل القائل :

« راح يصطاد . . اصطادوه . . »

كُن . . .

. . . كان !

« ما معنى هذه الحياة ؟ »

ينخر هذا السؤال كالسوس في نفس حسين فرغلي كل ليلة وهو خارج من القهوة بعد أن كوموا مقاعدها وأطفأوا أنوارها . يخف إليها قبل الغروب فيجد زملاءه المدرسين قد اجتمعوا حول (الطاولة) ويدور اللعب بينهم — لا ينقطع لحظة واحدة — كالمعارك الحربية في غليانها وقعقتها ، يتساقى اللاعبون كؤوساً مترعة من رحيق الفوز ومرارة الهزيمة ، فينهلون من وهما ويسكرون . . . حسين لا يلعب ، بل يكتفى بتتبع الحجارة والزهر بشغف كبير . يلتوى رأسه ذات اليمين وذات اليسار كعروس ميكانيكية انقلت ضابطها . وهكذا هو أيضاً في الحياة

يعيش على هامشها ، ويلوذ بالشاطئ ، خوفاً من تيارها . عواطفه موزعة تارة مع الغالب ، وتارة مع المغلوب . فالحايد المحروم من لذة المشاركة في الصراع يتسلى بمقدرته على الموازنة بالعدل والقسطاس . إذا دار الحديث فعن العمل والوظائف والدرجات ، حتى كأنهم الإبل يجترون بالليل ما أكلوه بالنهار . . . أى عقل شيطاني تفتقت حيلته عن اختراع هذه الطاولة ؟ هى لعبة ساذجة متشابهة متكررة ومع ذلك لا ينقطع سحرها كأنها الحشيش أو الأفيون . خرج حسين من الجو المسكتوم المغمم بالأدخنة والضجيج وانطلق إلى الطريق ، فوقه سماء القاهرة تكاد الروح ترشفها من فرط صفائها ، تناثرت فيها نجوم لامعة وأخرى خابية ، لا يكاد النظر يستوعبها فى مواقعها حتى تجد الأذن أن هذه النجوم المبعثرة مختلفات الألوان ينظمها نغم حلو جميل ، لكل لون منها نصيب فى إيقاعه ، ولكنه نغم خاف تشعر به الأذن ولا تتبينه ، كأنما هى أيضاً عين ترى ولا تسمع .

وبدا حسين سيره إلى شبرا ، وهو حين يشعر بالليل يحجبه عن الأنظار ، يلذ له أن يحتضن أفكاره ، ويختلى بها ، فيسرح ذهنه ، وتعود إليه ذكريات قديمة . عيناه تتكلمان تارة بالسرور

وتارة بالحزن . ويهتز رأسه مرة بالعجب ومرة بالحسرة ، وقد
يتمتم باسمًا ، وقد تحدث شفتاه هذه « المصة » الضئيلة التي
يعبر بها المصريون عن بعض ما في قلوبهم من توجع وعطف
ورثاء .. آه ! إنه الليلة آسف على حياته نادم من جديد . أما
يأتى اليوم الذى يتاح له فيه أن ينسى كيف ألقى بنفسه فى مدرسة
المعلمين وهو كاره لها ؟ وكيف نكص عن الزواج بجارته آمال ؟
تلك الفتاة التى خلبت لبه وسجرتة ، ورضى بالزواج من إحسان ..
خشى الأولى لأنها مستبدة لعوب فاتنة ، وقنع بالثانية لا عن
حب ، بل قياماً بواجب ، فهى ابنة عمه .. اطمان لها لأنها ربة
بيت ، هادئة ، معتكفة . فإذا فعلت بنفسك يا حسين ؟ أدت
ظهورك للنشوة والمتعة ، واللذة المتجددة ، والحياة المليئة بالعواطف ،
وآثرت حياة راكدة كالمستنقع . سرعان مامل إحسان ، وسرعان
ما انقلبت هذه الفتاة الممشوقة القدر إلى امرأة بدينة خشنة اليدين ،
لم يرها مرة تستقبله عند عودته ، وقد سرّحت شعرها أو اعتنت
بزينتها . تبدو له الآن حياته سلسلة من أخطاء وسوء حظ . إن
كان فى الحياة مهنة يمحقتها أشد المقت فهى مهنة التدريس . هو
عامل فرض عليه أن يبني الأساس ولا يتعمده ، ثم يحىء آخرون

يتممون البناء ويتمتعون به . . أى لذة فى عمل لا تتجسم أمامك
نتائجها فتمنح النفس جزاءها من الرضا والغبطة ! ؟

ما فائدة التوفر على تعهد الفرخ وتغذيته حتى إذا نما ريشه
أفلت من يدك وطار ؟ العالم كله يتحرك إلى الأمام ، والمدرس
ثابت فى مكانه ؟ وإن تلفت إلى الماضى يتلفت . . ما فائدة تعليم
هؤلاء الصبية وهو واثق بعجزه عن إسماعهم ؟ فالحياة مليئة
بالشرار والمصائد ، مخوفة بالمظالم والآلام والأحزان . سيخوضون
غمار معركة من أشد المعارك تطاحنًا وهولًا ، على حين أنه لم
يسلحهم إلا بقشور من العلوم النظرية ، وشقشقة لسان إن لم تكن
تصرفهم لا تنفع . كم كان يود أن يكون محاميًا . إنه يحس فى
نفسه المقدرة على الفهم واستخلاص المبادئ وسلامة المنطق —

وهذه مواهب لا نفيده فى صناعة التعليم ، ولكنها خليقة أن تتقدم
به إلى الصفوف الأولى لو أنه مارس الحمامة . ودّ حسين لو أنه
استطاع أن يدافع يوماً عن مظلوم أو يرد حقًا إلى صاحبه . .
ولكنه عاجز . فما يكرب نفسه أنه يرى المظالم تتزايد أمامه
وتتلاحق ، ولا أمل له فى أن يرى نهايتها ، أو يرى علمًا تسوده
العدالة . هذا تفسير ما فى نظراته من حزن عميق مختلط بغیظ

مكتوم . . ماذا يفعل ؟ إنه يقف طول النهار ينبح أمام تلاميذ كالقروء يلهون و يعبثون ، حتى يحف حلقه و يضطرب قلبه . هل نسى أن الطبيب قال له إن قلبك ضعيف يخشى عليه من كثرة الإجهاد ؟

وعندئذ تريت حسين في سيره ، ووضع يده على مكان قلبه وتأوه . . إنه يحس كأن إبرة تنغرز فيه . . لقد ساءت حالته الليملة ، إنه الإجهاد الذى يخشاه . . فمتى تأتى الاجازة ؟ . متى ؟ كان قد ترك الطريق الرئيسى وانعرج إلى درب ضيق ينتهى بالمزارع . . سكون شامل ، ومنازل نائمة . .

حدثته نفسه :

— لو أستطيع أن أرتد القهقرى عشر سنوات . . . عشر سنوات حسَب . . ولو ضحيت من أجل ذلك بعشر سنوات مثلها من مستقبل عمرى . . سنة بسنة . .

لم يكد يسير بضع خطوات بعد هذا الخاطر حتى خيل إليه أنه يسمع زحيراً شديداً يتلاحق من ورائه . هل يجرى فى إثره أحد ؟ أجهد أذنيه فلم يسمع وقع أقدام . ومع ذلك استمر هذا الزحير يسرع إليه ويدنو منه . طمأن نفسه يقول لها : لعله وهم

وخیال . فاللیل عالم مجهول ملء بأصوات غريبة لا نتبينها . .
 ثم سار قليلا . فإذا يدّ تلمس كتفه ، والزحير يكاد يشق صمناخ
 أذنيه . . سمع حسين وقرأ أن شعر الرأس يقفّ عند الذعر ، ولم
 يكن يصدق . في تلك اللحظة أحس كأن يداً قاسية جمعت شعره
 في قبضتها وشدته شداً قوياً يكاد يتمزق منه جلد رأسه . وشعر
 حسين بأن اليد التي وقعت على كتفه لوح من الثلج ، فقد
 جمد لها قلبه ، وإن يكن جبينه قد التهب لها وتصب عرقاً . . .
 التفت حسين مذعوراً ، فوجد وراءه رجلاً نحيفاً هو إلى القصر
 أدنى منه إلى الطول — يرتدى ثوباً أسود كثياب التشریفات ،
 من طراز يرجع إلى عهد غابر ، ذكر حسيناً بصورة قديمة لأحد
 جدوده . . والغريب أن هذا الثوب كان فضفاضاً كما نما فُصِّلَ
 لرجل أطول منه وأشدّ امتلاء . . فقد رأى حسين أمامه رقبة
 نحيلة تأنه في بنية منشاة واسعة . . يريد ذقنه أن يعتمد على
 حافتها فيشنقها فرط ارتفاعها . . لم ير له يدين ، وخیل إليه أن
 الكمين فارغان ، ليس فيهما ذراعان : حدّق بنظره في تقاطيع
 هذا الغريب ورأى — أو خيّل إليه أنه رأى — وجهاً إنسانياً
 ذا عينين وأنف وأذنين . . ولكن عجباً ! لماذا لا تستقر نظره

على هذا الوجه ؟ لم تنطبع له صورة في ذهنه ، كأنما وجهه هوة
 لولبية ، أو سراديب ملتوية ، أو صورة فوتوغرافية مهزوزة . .
 أشاح حسين بوجهه من الرعب ، ومن تلك الرائحة المنتنة
 القاسية التي غمرت وجهه من فم هذا الغريب . وحين بدأ الرجل
 يكلمه إذا صوته صوت طفل وديع ، وإذا هذا الصوت الحنون
 وحده يراخى قبضة اليد التي كانت تجذب شعره فيعود إلى
 رقاده . . . وخامر قلبه شيء من الطمأنينة لم يدر سببها . قال
 له الرجل :

— لا مؤاخذه يا سى حسين . . خشيت أن تغير فكرك
 قبل أن أستطيع اللحاق بك . كنت مشغولاً جداً في القصر
 العيني وفي مستشفى الحميات . . فأنا — كما ترى — مجهد حقاً .
 ولى عمل شاق لا ينتهى . . سمعتك تتبرع بعشر سنوات من
 عمرك لقاء أن تعود القهقري عشر سنوات مثلها ، وأنا في ضيق
 علم الله — ومحتاج أشد الاحتياج إلى يوم ، فكيف بعشر
 سنوات مرة واحدة .

— لا شك أنك سعيد في حياتك . فلم أر قبلك أحداً
 يتعلق بالدنيا تعلقك بها . .

— لا . لا . لا أريدها لنفسى ، بل لغيرى .. دعنى أتذكر .
 نعم . عندى أب قارب الرحيل وقد قدر له أن يرى ابنته الوحيد
 الشاب يموت قبله . سأعطى الابن شيئاً من هبتك حتى أجنب
 أباه تجرع غصة الألم . وهذا شاب لو انتقل عن هذه الدنيا لحرم
 أولاده من ميراث جدّهم ، سأعطيه سنة حتى ينتهى أجل أبيه ..
 وهذا فتى أحب فتاة غاية الحب ، سيموت قبل الزفاف — وليس
 أشهى علىّ من أن أمتع به ولو شهراً واحداً . فها أنت ذا ترى
 أن هبتك السخية تكفى لبعض هذه الأعمال الخيرية .. لهذا
 أسرعت إليك ..

خفت الأبحرة المنقنة شيئاً فشيئاً . واستطاع حسين أن يقارب
 وجه هذا الغريب .. بل بلغ به الاطمئنان أن ضحك في وجهه وقال :
 — مهلاً ! مهلاً ! هذه هبة كما قلت ، ولكنها — يا عزيزى
 الأستاذ — ليست بدون مقابل .. فهل أنت قادر على أن
 تردنى القهقرى عشر سنوات ؟

انتبه حسين إلى أن جواً من الطيب والرائحة الذكية تسطع من
 مخاطبه .. وتمنى لو استطاع أن يقترب منه أو يضع ذراعه في
 ذراعه ...

أجابه الرجل وهو يتسهم :

— ألم تقرأ في القرآن الكريم « ادعوني أستجب لكم » ؟
 إني عبد من عباد الله لا أعلم أن أحداً قد كلف بمهمة شاقة
 كمهمتي .. وأنا مقبل على أدائها بإخلاص وبكل قوتي .. حرصاً
 على رضى مولاي .. وإني لحسن الظن بكرمه وممه .. لم ألتس
 منه طلباً من قبل .. فلا أظن أنه يخيب رجائي لو سألته هذه
 المرة .. كن واثقاً أنني أحقق لك ما ترجوه ..

ود حسين لو أنه تردد قليلاً أو سأله مهلة ليفكر من جديد ..
 ولكنه خجل من رقة محدثه، فوجد نفسه يقول له وهو ذاهل ..
 — لا مانع عندي ..

— يا لك من سخى شجاع ..
 وعندئذ أخرج حسين ساعته ونظر إليها فأوقفه الرجل قائلاً :
 — لا . لا . إني لا أعرف حساب زمنكم هذا ..
 ثم تلفت إلى السماء ونظر إلى النجوم وقال :

— سيكون بدء تنفيذ اتفاقنا في تمام منتصف الليل .
 قال له حسين :

— اتفقنا . . .

أجابه الرجل :

— هذا القول لا يكفي . . إننى أريد منك أن تهبنى السنوات العشر بالصيغة الشرعية . فقل معي :

« أهبك عشر سنوات من عمرى طائعاً مختاراً ، وأنا فى تمام عقلى وإرادتى ، على أن أعود القهقرى عشر سنوات مثلها . . »
كرّر حسين وراءه الصيغة كلمة كلمة . . فإذا بالرجل يرتب على كتفه ويقول :

— إنك أكبر المحسنين لو علمت . وليس أحد أولى منك بأن يقام له تمثال . . ثم ابتعد عنه ، يتحرك جسده ، ولا يرى حسين على أى قدمين يسير . .

واستمر حسين فى طريقه وهو ثمل لا يدرى هل يغتبط بفعلته أم يندم عليها . همس لنفسه يقول : « إنك أسعد إنسان على وجه الأرض ! ستقوم برحلة لم تنس لأحد من قبلك »
ونجاة وقف حائراً وقال :

— ولكنى نسيت أن أسأله هل سأعود القهقرى عشر سنوات محتفظاً بما فى من تجارب وأفكار ومن خبرة ومزاج . .
ليتنى أدخلت هذا الشرط فى اتفاقنا !

عشر سنوات إلى الوراء ! سيفير حياته كلها .. سينعم بما
 حرم نفسه منه .. سيتجنب كل أخطائه . تألق وجهه وأسرع
 خطواته ، وأحس أن نشوة غريبة تهز عطفه .. فإذا به يقف من
 جديد وقد ساوره شيء من القلق :

— ليتنى سألتك كم يبقى لي من العمر بعد تبرعى بعشر
 سنوات ؟

كان قد وصل إلى داره وفتح باب الشقة فإذا رائحة المرحاض
 تزكم أنفه مختلطة بعفونة قشور البصل المتخلف في صفيحة القمامة .
 اعتاد حسين إذا عاد في مثل هذه الساعة أن يجد شيئاً
 من الطعام على المائدة فيتناوله بارداً وهو صامت ، وزوجه نائمة
 لا تتحرك .. ولكنه في هذه المرة لم يكذب يدخل حتى سمع صوت
 إحسان تنادى :

— من ؟ حسين ؟

وقامت إليه محمرة العينين ، مشعثة الشعر تقول :

— عجباً ! ما كدت تدخل حتى طار النوم من عيني ،
 وانتهت مذعورة لا أدري ماذا بي .

جلست معه على المائدة وسخن له طعامه ، وحدثته عن بعض

توافه يومها ، ومع ذلك كان كلامها ينزل برداً وسلاماً على قلبه ..
 هي زوجته ، وليس في حياتها أحد سواه . حبيسة داره ، حياتها
 كلها وقف عليه وعلى أولاده . كثيراً ما اشتكت وثارَت وضجت
 ولكنه لم يسمعها تؤلمه بكلمة تجرح قلبه .. حزن لها حسين
 وضاحكها ، بل عرض عليها أن يسهر معها ويتسلوا بلعب
 الكونكان .. وهي لعبة الورق الوحيدة التي استطاع أن
 يعلمها لإحسان .

واستمر اللعب زمناً .. وتناول حسين ورقة يربح بها الدور ..
 فرفع يده بها مسروراً يقول :
 - كن ...

ولكنه لم يستطع أن يتمها (كونكان !) كان الليل
 قد انتصف

دخل عليه وكيل المكتب يقول :

- السمسار منتظر يريد أجره

أطرق حسين برأسه ذليلاً . لقد انحدرت به الحال إلى أن
 أطلق بعض السماسرة يتصيدون له الزبائن من على القهاوى ..
 لم يبلغ إirاده في هذا الشهر عشرين جنيهاً ، وإنه والله ليخشى أن

يعود إلى داره ، فقد طالبتة آمال بشوب جديد لا يقدر عليه ..
 من كان يظن أن فتنة هذه الفتاة ستزول سريعاً ؟ عاشرها وتمتع
 بقربها ، ولكنه يشعر أنه ظل طول عمره غريباً عنها . لا يدري
 ما يجول برأسها .. يريد أن يخضعها فلا تخضع ، ويأمرها فتتغفلت
 منه طليقة .. ثم كم تؤذيه ويؤذيها بهذه الكلمات القاسية الجارحة
 التي يتبادلانها كثيراً .. ثم — وهنا العجب — يضمهما الفراش
 فينسيان كل شيء في ضمة الجسد للجسد . وتعود العداوة والبغضاء
 في الصباح .. طبيعة حيوانية يتعامى الإنسان عنها ويتعالى ، وهو
 عاجز في قبضتها غريق في أحضانها .. ترى أين إحسان الآن ؟
 ألم يكن هو أولى بها — وهي ابنة عمه — من زوجها العامى
 الذى لا يحسن معاملتها ؟ ألم تكن راحتته وسعادته في الزواج منها ؟
 ولكنه تكبر وخان ، وجرى إلى آمال كالأحق ..

وسار حسين على مهل إلى داره .. الحمامة ؟ هى مهنة مليئة
 بالكذب والخداع . كم يتألم ضميره وهو يصرخ أمام القاضى بكلام
 يعلم فى قرارة نفسه أنه كذب وتلفيق .. كل ذلك لقاء دراهم
 معدودة لا تسمن ولا تغنى من جوع ..

آه ! آه ! إنه أضاع حياته . وما فائدة جهاده فى الحمامة

والناس كالوحوش الضارية والذئاب المتفارسة ؟ إن اكتسى وجه
الظالم بغلالة سوداء بغیضة فما أجدر المظلوم الأنوف بأن يرفع
رأسه ويتجلى وجهه أبيض وضيقاً . . ولكن حسين يتطلع إلى
وجوه زبائنه فلا يتبين الظالم من المظلوم . . كل منهم تنطوى
نفسه على الغلّ والحقْد . لا يكتفى الظالم بجبروته ، بل يهبط به
جُبْنه إلى الدس والكيد والتلفيق . . وعُمى المظلوم عن نبل
المطالبة بحقه وثوابها وامتلاّت نفسه سُماً ، لا يرضيها استرداد
الحق ، بل الانتقام بأي ثمن من الخصم — ولو ظملاً ! كم كان
يود أن لو يشتغل بالتعليم ، لتكون براءة الطفولة الساذجة هي
مادة عمله ، وليساهم في بناء جيل صالح ينشأ على الأخلاق الفاضلة
تبدأ به مصر حياة جديدة . . وهل هناك أنبل من وقفة المعلم
أمام صف من الصبيان يتطلعون بعيونهم المتعطشة إلى كل حركة
تصدر منه ، وكل كلمة تخرج من فمه ؟ هذا هو البناء الذي يرضى
النفس . وأي مهنة أخرى تهيب لصاحبها مثل هذه المتعة الروحية ؟
أما الآن فإنه يجاهد في الحماة جهاداً زائفاً مُضِيعاً . . أحقاً أنه
يعمل لرد الحقوق إلى أصحابها ؟ إن صح هذا — وهو غير
صحيح — فما فائدة تعمير البناء والأساس فاسد مختل ؟ إنه يحس

في نفسه القدرة على الصبر والتؤدة والتبسيط ، وهذه صفات تؤخره
في المحاماة ولكنها خليقة أن تدفع به إلى الصفوف الأولى لو أنه
مارس التعليم .

قابله آمال غاضبة تقول :

— لا أراك إلا والليل متقدم .. وما أظنك غبت في هذا
المكتب المبارك وهو أفرغ من فؤاد أم موسى .. أأكبر الظن
أنك كنت مع صحبة السوء في لهُو وعيث .

— كيف أرضيك يا آمال ؟ ألا ترينني متعباً ؟

وضع حسين يده على قلبه وتهد .

— إن الأزواج ليرجعون إلى البيت فيحدثون أزواجهم
ويلاطفونهن ويتسلون معهن ..

— وماذا تريدن ؟

لَوْتُ خرطومها وتركته

سار وراءها ذليلاً يقول :

— آمال ! تعالني . تعالني نلعب الكونكان معاً فأنا مهموم

أريد أن أتسلى ..

بلغ من ضعفه بين يديها أنه لا يجسر أن يمن عليها بما يفعله

لإرضائها .. فكل خدمة منه لها يصورها خدمة منها له ..
 واستمر اللعب زمناً ، وتناول حسين ورقة يربح بها الدور .
 فرفع يده بها مسروراً يقول :
 — كن ...

ولكنه لم يستطع أن يتمها « كونكان »
 انشق الجدار وخرج إليه منه رجل غريب ، ولكنه ليس
 بالغريب عنه . هو أقرب إلى القصر منه إلى الطول . مال
 بوجهه الذكي الرائحة على حسين يقول :
 — يا سى حسين ! هل أنت ذا كر ؟ لقد نفذت عهدي
 من الاتفاق . أليس كذلك ؟
 ابتسم له حسين ابتسامة ملؤها الاطمئنان والود والإخاء
 وقال :

— تم حديثك ولا تخف عني شيئاً . أكاد أفهم الآن كل
 ما كان غامضاً علي ...
 — نسيت أن أخبرك في ساعة اتفاقنا أنه لم يكن لك
 عندئذ من بقية العمر أكثر من تلك السنوات العشر التي
 تبرعت بها .. فهل أنت مستعد ؟

أسبل حسين جفنيه ، وخفق قلبه ، ومال عليه وجه سمح
منزعج يقول :

— حسين ! حسين ! ما بك ؟

— مَنْ أنت ؟

— أنا إحسان ! ألا تعرفني ؟ لقد كنت أمامي منذ لحظة

سليما معافى . فماذا بك ؟ هل يؤلمك شيء ؟ رد على !
أدعو الطبيب ؟

ولكنه كان قد فارق الحياة ، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة .
ووقفت أمامه إحسان ذاهلة لا تقوى على تفسير ما حدث
كيف حدث !!

القديس لا يحار

تحلل القديس من قيود الوطن والأهل والأصدقاء ، ورحل
يبلغ رسالته للناس ، يبين لهم باطل الدنيا ودنس المال ، ويدعوهم
إلى اللحاق به في هجرته إلى الله وحده ، لا يملك شيئاً
ولا يستقر بمكان .

وسار وراءه نفر من أتباعه . رجال جاوزوا سن الثورة
والاستهتار ، خشنوا الجلد والملبس ، إذا نزلوا بلداً سهل إيوأهم
وإطعامهم وتشديدهم ؛ ولو لم يتبعوه لظلوا أمام بيوتهم
يصلطون الشمس طول النهار . ولكن من هذا الشاب الجميل
الذى يسير في مؤخرة الموكب: مديد القامة عليه سمة النبل، متشد
الخطوة كأنه متبوع لا تابع . ما أصفى بياض يديه ورخاصة
أنامله ، يشد بها حافتي مسوحه فكأنها مشبك من الأحجار
الكريمة . . . من يكون ؟ ولماذا يسير مطرق الرأس ؟

إنه النبيل « ع » الابن الأصغر لسيد مقاطعة نائية ، تربى

في كنف العز وعاشر السعداء، ولم تقع عينه على بؤس . ولما مات الأب ، وورث الابن الأكبر لقبه وضياعه ، دعا أخاه المدلل وقال له :

— لا أطيق أن أصبح مميزاً عنك فأنفرد بالخير كله ، ومقامك في قلب أبي الكريم كان فوق مقامي ، فإن شئت عشنا معاً لك مالى ، وإن شئت اقتسمنا التركة بالتساوى .

فأطرق النبيل «ع» برأسه ، ولم يجب . غادر القصر واعتكف في كوخ صغير أياماً طويلة خرج بعدها يعان لمن حوله أن هاتفاً هتف به بين اليقظة والنام يدعوهُ أن التحق بالقديس . فلما ترامى الخبر للناس عدوها كبرى معجزاته ، وأكبروا في النبيل نزوله عن الغنى الواسع والعز العريض ، واختياره التكفف وسؤال الناس كسرة الخبز في سبيل الله .

طارت شهرة النبيل بين الناس وتزاحوا حول الموكب لا ليروا القديس ، فهم لا يجهلونه ، بل ليتطلعوا إلى النبيل الوسيم كيف يبدو في ثياب الراهب . ينصرف الرجال عن الموكب وهم أَرْضَى نَفْساً وأهنأ بطعامهم وشرابهم . أما الأمهات والجذات فكن يسبحن لله الذى سبقته إرادته ، فاختر هذا الوليد لحياة

كلها حرمان وقسوة ، وما كان أجدر شبابه بالتمتع واللعب . أما
 الفتيات فكن إذا رأين يده الناعمة الرخصة فوق المسوح الخشنة ،
 وتطلعن إلى وجه الشاب الذى أصبح مثاله صعباً بل حراماً ،
 شعرن بقشعريرة تسرى فى أجسادهن ، وركن على الأرض
 يتمتمن بدعواتهن ، ولكن أحداً لم يفلح فى أن يرى عينيه ...
 لماذا هو مطرق ، ولماذا يسير فى مؤخرة الموكب ، ولو شاء لكان فى
 أول الصفوف ؟ ليس بينه وبين القديس إلا خطوة واحدة .

وفى يوم مر القديس وحاشيته على قصر منيف ، فسأل عن
 صاحبه فقيل له إنه لثرى عظيم لا هم له إلا اكتناز المال ، ولم
 يسمع عنه فى يوم أنه أحسن بدرهم . فعدل القديس عن مواصلة
 سيره ودخل القصر ليهدم منه للشيطان معقلاً ، ويظفر بتخليص
 أرواح ساكنيه . فوجد الثرى جالساً أمام مائدته ، تتكدس
 عليها الأطباق والأقداح ، عن يمينه زوجته ، وعن يساره ابنته ،
 وأمامه أولاده ، ومن حواليه أتباع وحشم يتطلعون لشفتيه لعاهما
 تنبسان بأمر .

امتلات الردهة بالأصوات ، ولكن الضجة لم تمنع النبيل
 — ولعل إطراره ساعده على إجادة السمع — من أن ينتبه

لضحكة رقيقة تحاول صاحبها كتمانها فلا تقوى . . . هل مبعثها سرور أو دهشة ؟ أم هي سخرية ؟ رفع رأسه فوجد ابنة الثرى تتطلع إليه بعيون ندية كلها أضواء . . . ورأى كيف تحتال حتى جاء مقعده إلى جوارها .

وتفجر القديس يلوم ، وكأن روحه ترمى بالشرر ، ثم يعظ ، فكأن قلبه يفيض بالغيث المنهمر ، وسحرت بلاغته الحاضرين فتقاربت الوجوه وتشابهت السحن ، فما يُميز بين السادة والخدم .

واختلت الفتاة بالنبيل ، وجرى بينهما حديث خافت :

— لو أنك مررت علينا من قبل لخطت لك هذا المسح على قدك ، فإننى أشفق عليك وأنت تتعثر فى أذياله ، وتديه ذراعاك فى أكامه ، فقل لى بالله عليك كيف تحتمله ؟

— لا يكربك الأمر ؛ فلست دالفاً إلى مرقص ، بل ساعياً إلى رب ينظر إلى القلوب لا إلى الأثواب .

— ويلى إذا ! لقد كنت أظن الرقص عبادة ؛ فما رقصت مرة إلا شعرت أننى أقرب إلى الله منى فى أوقات الفراغ والسأم وهنا وجد الشاب نفسه أسير نظرة فاجصة ماكرة ، هازئة

كلها عطف وفهم ، فيها بريق عين النهم وهو جائع مقبل على
أشهى أطعمة ، وأضواء لمحّة الحبيبة إذا ما شفى الحبيب غلتها .
جرحه نفوذ النظرة إلى قلبه فانقبض ، ولكنه استراح لعله
أنه لو شاء لكان سلطانه على الفتاة أقوى من سلطانه عليه .
فأجابها قاصداً هدايتها كأنه لم يغضب ولم يبال :

— وما بعد الرقص ؟ ألا تفكرين أن كل هذا سراب ،
وأن هناك موسيقى غير موسيقاكم ؟ اللهم إن كلّي آذان لسماع
أناشيد التسابيح بحمدك ، الصاعدة من الكون ، المدوية في
الفضاء ، فأسألك اللهم أن تجعل من قسمتي سماعها !

— إن الله قد أغدق نعماءه على الكون ولم يحرم منها إنساناً
له قلب وبصر ، فذهابك الآن تفرع باب الله دليل على أنك
عشت إلى اليوم غافلاً عن جماله . وهذا ماض سيقعد لك في
مستقبلك وإن جاهدت . خذها عني : إن الله لا يحب من
عباده السائل اللحوج اللجوج ، ولا من يستعين للوصول إليه
بمسبحة طولها أمتار ... ثم مالت الفتاة على أذنه تقول :

— هلم اعترف أنك فهمت أنني أعلم لماذا ارتديت المسوح .
أنت طموح ، مبدؤك إما الكل وإما العدم . تركت الثروة لأنها

نصف ، والدنيا لأن كل لذة لك فيها تنقضي ، فإذا هي تقصر
 عن حد تتخيله ، وتسير في مؤخرة الصفوف لأنك لست على
 رأسها . ولو وقفت بين يدي الله لسألته : ما وراءك ؟ فتواضعك
 هو الكبرياء ، وزهدك هو غاية الطموح . إنني أعلم أنك نشأت
 يتيم الأم ، ولو عاشت لوجدت في عطفها ما يربط قلبك ، وما
 أشبهه الآن بصخرة في أعلى الجبل ... ومع ذلك لم يفقد الأمل
 فيك . لقد اخترتك لنفسى ، فابق ، انظر إلى ، وتمتع بجمالى .
 ستعلمك قوة حبي كيف تؤمن أولاً بإنسانيتك ليصح إيمانك
 بعدها بالله . إن لأبى جماعة من مهرة الموسيقيين إذا وقعوا على
 آلاتهم أرقصوا الجماد ، سأجعلهم يعزفون إذا أذن رئيسكم ، ولا
 أظنه يرفض ، وإلما كان قديساً — فماذا عليك لو خلعت المسوح
 وارتديت أبهى الأثواب ، فقامت إلى وانحنيت أمامى ، وتناولت
 يدي ، ودارت ذراعك حول وسطى ، وضمتني إلى صدرك ، ورقصنا
 فتمثلت النعمة في حركاتنا ، ثم انفلت عنك وأنا أخبر بك
 وأنت أدري بى ... وسترى أنه لا يزال هناك أمل .

انهت كل شيء من حوله . لو أنه أطاع وسواسه لهوت يده
 عليها يشدها من شعرها ، ويجرها على الأرض ، ولداسها بقدميه

أو لمال عليها يغمرها بقبلاته ، ولكنه خطأ خطوة ليس عنها
 نكوص ، ولو نكث لما صدقه من بعد ذلك أحد ، ولا صدق
 هو نفسه . ولقد بقي في أذنه من كلام الفتاة لفظ (الأمل) .
 إنه سيظل حيث هو ، جاهدًا في طريقه محتملاً ما لا تقوى على
 احتماله الجبال ، آملاً أنه سيرى في النهاية بارقة الرضا في وجه ربه
 الكريم ... ولكن الآن ! الآن ! الحياة كلها أمامه في متناول
 يده . آلاف الأصوات تناديه : أقبل ! اشرب ! إنني عطشى .
 وكان القديس لا يزال يعظ ، ورويداً رويداً طأطأت
 الرؤوس على الصدور ، وتصادت الآهات ، وانفجرت الدموع ،
 وركع الجميع أمام القديس ، يلثم رداءه من لم يستطع الوصول إلى
 يديه المرفوعتين إلى السماء
 وترك الثرى مائدته ، وقف يقول للقديس بصوت يغالبه
 البكاء :

— أسلمت قيادى إليك . فأنا منذ اليوم من أتباعك .
 سأترك القصر وما فيه من متاع وما حوله من ضياع ، سأترك
 مخازنى ، بعتيق شرابها ، والحقل بعجيج دوابه ، سأتبعك كظلك ،
 ولن أكون وحدى ، بل سيتبعنى أيضاً كل هؤلاء : زوجى

وأبنائى وزوجاتهم وبناتى وأزواجهن والأصهار والأتباع . أرنا الطريق ونحن فى أثرك .

لم يحر القديس جواباً ، لم يتعقد جبينه ، فهو وضاء منير . ولم يزم شفتيه ، فابتسامته الجميلة هى هى ، ولكنه غائب عن الجمع ، نظرته تأهبة ، لعله يستمع إلى وحى خفى يقول :

— لوتبعوك لخرب القصر وبارت الأرض ونفقت الدواب ، ومن أين لك إ طعامهم وإيوأؤهم وإيجاد عمل لهذا الجيش العرمرم ؟ هل يتكففون الناس مثلك ؟ والقديس من الواصلين الذين يستند إيمانهم على صخر لا يتزعزع ، لا يعرف الشك ولا الريبة والتهكم . لم يثر فى قرارة نفسه ولم يقل (إذاً ما حكمة رسالتى ؟ وما قيمة المبدأ الذى خرجت أبشربه ؟ وكيف يكون الكيل كيلين والصاع صاعين ؟ وإن كان ما يصح لى هو الحق فلا بد من أنه يصح للناس أجمعين) .

لم ينقص إيمان القديس ذرة ، ولم يهتز لحظة ، فكيف يكون قديساً إذا بدت له المسائل كما تبدو لبقية الناس متناقضة مضطربة ، مضحكة مبكية ؟ لهؤلاء القديسين نظرة تشمل الكون وتفهم الأسرار ، فما يبدو عجيباً هو ذات الحكمة ، وما يبدو

متناقضاً هو عين الاتساق . قال القديس بصوت كأنه يخرج من كهف عميق :

— يا بني ! احمداً الله أن هداك أنت ومن معك للحق ...
على يدي ! إن الطريق الذي تريد أن تسلكه وعمر ، لا يقوى
عليه إلا القديسون أمثالي . فامكث مكانك وأقبل على عملك ،
واسكن إلى زوجك ، وداعب أولادك وبناتك ، وأشرف على
شؤون خدمك وحشمك ، وحقوقك وضياعك ، وتمتع بأكلك
وشربك ، على أن تعدني أن تفعل الخير وتذكر الله . تمثله
لنفسك في كل لحظة حتى تعلم أن كل ما حولك زائل وأنت
ملاق ربك فحاسبك حساباً لا يضع فيه مثقال ذرة من خير
أو شر .

بدا الوجوم على وجه النبيل وكأنه لم يفهم شيئاً . فاستمر
القديس يقول :

— لا تحزن . إنك ستمكث في القصر — في نظرك —
ولكنك ستكون مع ذلك من أتباعي . ما قيمة التمسك بالذيل
واقتفاء الخطوة ، في حين أن الروح متبدل والذهن غائب ؟
ستتبعني بروحك . بإيمانك . . . ولك على أنني لن أنساك في

يوم ، فلن يغيب عنك ندائي بل سأحمل شخصك في قرار قلبي .
 سأشئ لك ولا مثالك طريقة خاصة بكم لتلحقون بها ، فتربطني وإياكم .
 وعادت الردهة إلى هرجها ومرجها ودبت فيها روح البهجة ،
 ودارت الأطباق والأكواب ، وسكن الثرى إلى زوجته ، وداعب
 أولاده وبناته ، ونادى كلبه الأمين فأقعى تحت قدميه .

والتفت النبيل (ع) فوجد الفتاة عن يمينه ، والقديس يهيم
 بالانصراف عن يساره ... ولكن هاتفاً هتف به فإذا هو يتمتم
 لنفسه : نعم ! لا تيأس من رحمة الله

فجمع أطراف مسوحه ، وجرى إلى الجمع واتخذ مكانه بينهم ،
 لا في آخر الصفوف هذه المرة ، بل وراء القديس كأنه يلوذ به .
 وتحرك الجمع يرددون وراء القديس قوله :

« اتركوا الباطل الزائل واتبعوني ! »

ووقفت الفتاة صامته برهة ، ثم همست تقول :

— يا له من غر مسكين لم يفهم الوحي . لما نادته رحمة الله

أن ابق ، فإذا به يولى عنها وينصرف !

ثم ضربت الأرض بقدمها وصفقت تقول :

— موسيقى ! رقص !

يبنى وينيك

كم من مرة قطعت فيها هذا الطريق معك ، ذراعك في
ذراعي ، فما شعرت أطويل طريقنا أم قصير ، أفي يومنا المسير
أم في غدٍ لم يأت بعد ، أم هو في ماضٍ من العمر قد ولى وفات .
كان الطريق هو الذي يقبل إلى ، يأخذ بيدي ، ويريني
اتصاله بالأفق ، بالسماء ، بالأفلاك .. على جانبيه دور هادئة
الماوى كصدور الحاضنات ، ويمر بنا أناس كل منهم شعاع من
نور الله ..

أما الآن ، بعد اختفائك ، فهذا الطريق بعينه أقطعه وحدي
فلا ينتهي ، المسير سخرة ، والأفق قيد ، والسماء غطاء ،
والنجوم ترمق الأرض شزراً .. الدور سجون ، والناس أطياف
ذاهلة لا تدري ما القدر ، وإن شكّت كفرت



ما رأيت عاملاً في ترام أو في متجر أو في مقهى إلا سلم عليك

سلام الترحيب والإعزاز ، فالحياة المتدفقة من روحك تمسح
عن النفوس جميعها صداً الألم والحزن ، وتنفض عن الوجوه
رماد البؤس والشقاء .

وأنت ، لا تستقر نظرتك على وجه واحد ولا تتريث ..
تهبين وما تقدرين أى مال تنثرين . أفأنت عمياء كأعمى
الغريزة وأبيك الحظ ؟ ...

السيدنا مزدحمة وأنت لا تعبئين بأحد . المشهد مؤثر ، والناس
يبكون ، وأنت ضاحكة :

— أبكى من خيال ؟

يا أختاه ! لا بكيت أيضاً ، ما عشت ، من حقيقة ..
ومن يدري ! لعلك قد انصرفت عنى يوم اختفائك
عابثة تقولين :

— أبكى من خيال ؟

نقلت إلى أن خالتك ، أو تلك التى تزعمين أنها خالتك ،
حدثتك عنى بالأمس وقد تركتكم فى العربة :

— أهذا الذى تذكرين ؟ إنه ساذج . هو فى يدك
 كالعجين . فلتهنأى به .
 ما آلمنى هذا الوصف ، بل رحبت به ورضيت ، صدقت
 نظرتك فى أم لم تصدق : سيّان عندى . إن الحب الذى يغمر
 قلبى هو كل ما أسألك عليه من أجر . فلا يهمنى تصفيق النظارة
 أو صفيهم

ما أظنك أحبيت أحداً أو شيئاً حُبَّكَ الثوب الجديد . هو
 حب صادر من قلبك ، عائد إليه ، فأنت به قريرة العين ،
 سعيدة ، ناجية من سيطرة الغير . .
 على لسانى دعاء :

— ألا فليذلك الحب يوماً . . .

ولكن قلبى يهمس :

— خيب الله مُنَاكَ

ماذا تظنين ؟ أحسبت يوم اختفائك أننى سأوى إلى عشنا
 فأمكنك أترقب ميعادك ، فإذا مضى تشاغلتي بكتاب أقرأه

ولا أفهم منه شيئاً ، ونظرت إلى الساعة مرة وتشاءبت أخرى ،
حتى إذا ما تنبهت إلى مشاغلي التي أهملتها من أجلك ، هبطت
الدرج سريعاً ، وانطلقت إلى الدروب والمسالك ، واختلطت
بالناس . . أو يدور بخلدك أنني عندئذ أنسى كل شيء ؟ هيهات
خيلالك ، مهما سكر وعربد ، أن يدرك ما فعلتُ . . . لبثت أنتظرُك
ساعة ثم ليلة ، ثم يوماً ويومين ، أسبوعاً وأسبوعين ، شهراً
وشهوراً . . وما زلت أنتظرُك . وأنا أعلم أنك لن تعودى .
ولكنى أخشى إذا أنا لم أنتظرُك وشاء القدر أن تعودى أو أن
ألقاك في الطريق ، أخشى حينئذ أن تكون لهفتى على رؤيتك
قد طواها النسيان وأطفأ أوارها . ولست أريد إلا أن أقابلك
مشبوب العاطفة ، واله القلب ، ظامئ العين . فأنت لو تعلمين
عزيزة لدى ، وهيهات لى أن أبتذل قدرك عندى . . فلا تحمل
الألم طول الدهر خوفاً من إساءتك فى لحظة عابرة قد تأتى
وقد لا تأتى

اشتريت لها الحذاء فلبسته بعض اليوم ثم خلعتة :
— حذرني الطبيب من الكعوب العالية .

وألقته عنها مَيِّتاً في عنفوان الصبا . منعنى كرهى لهذا الخداء
السخيف الذى همَّ بأذاها من أن آسف على موته السريع

أيها الفتاة الغريرة ! كيف لم يقو مكرك على ستر سذاجتك
الكامنة في نظرتك . أتكونين ساذجة قد تعلمت المكر ، أم
ماكرة قد تعلمت السذاجة ؟ اكذبي ما شئت وامكرى ، فليس
أحب إلى قلبى من كذبك ومكرك ...

هذا الأناث اشتريته على عجل من أجل عشنا . ما نقبت ولا
اخترت . ظل طول رفقتنا أنانياً أبكم . لم تحيه نظرة فاحصة
من عينيك . ما سمعتك راضية عنه أو ساخطة عليه . وكنتُ
إذا انتظرتك وفات — كالعادة — ميعادك ، أتطلع إلى قطعه
واحدة واحدة ، فما حنت يوماً وأسعفت تساؤلى بجواب . حتى
إذا أشرقت شمسك تلاشى كالظلام من حياتى .

ولكن ها قد حلَّ يومك — ككل ظالم — أيها الأناني
الأبكم . الآن بعد اختفائها نطقت ، بل ما عدت تطيق
السكوت . لا ينقطع تساؤلُك : « أين هي ؟ » « متى تعود ؟ »

يكاد ينشق خشبك عيوناً جائعة تتلهف على نبسة من شفقي ،
وتكاد تمزق منك أذرع تتشبث بي وتستجديني الجواب .

أيها الثرثار ! لج في الكلام ما شئت . فانا اليوم - ولم
العجب ؟ - كما كنت أنت بالأمس - أبكم ! ولكن لا عليك
أيها الوفي الأمين . كيف لجريح أن يعيث بجريح ؟ ليس من
رباط بين القلوب أقوى من العاهة المشتركة . أنا أيضاً أيها
الرفيق الكريم لا أدري أين هي ولا متى تعود . فضم بلواك إلى
بلواي لعلها بهذا عليك تهون . .

أيها الرفيق اللقيط ! لأنك عندى الآن أعز من أطهر الأبناء .

أيها الفتاة الغريرة .. لم يكن لي أمل فيك ، ولا بنيت من
حبك أكوأخا ولا قصوراً . لا يركن إلى الأمل إلا من قصر
يومه فاختلس من غده .

أما أنا فقد كان حاضري يفيض بي ويفيض عني .
كان ! فكل ذلك قد ولى وفات . وكأن الذي أغدق على
بالأمس - غير مسئول - يتقاضاني اليوم ثمن الإسراف
بالحرمان .

وكم من محروم مظلوم . . .

بعد أيام قلائل من لقائنا كنت قد قصصت عليك ماضى
وكل حادثة ساقتهنى إلى . أما أنت فقد مر الحول وبعض الحول
ولست أدرى عنك شيئاً . ما هممت بسؤالك ، ولا شكاً قلبي من
ظماً . فليس الغموض الذى يحوطك إلا انبهار العين من نورك
الوهاج . وهل لك ماض ؟ إنك لست بنت الحوادث ، بل
أنت أم الحياة ! . .

خاللتك عاما وبعض عام ، فما سمعتك تنطقين بفكرة أو تبدين
رأياً . . ماتلوثت شفتاك بالحكمة ، ولا نضح لسانك بالفلسفة . .
مادلت الحوادث عليك معانى موهومة مزيفة ليهتز لها رأسك
استعباراً . . ما سمعتك تذكرين ولا تأملين . لا ماضى لك
ولا مستقبل ، بل كنت فى كل لحظة كمال الحياة لتلك اللحظة .
تتفجر منك الحياة كمنايع الأنهار ، لا يهمها أتبدد النهر أم اغتاله
مستنقع . أتبخر هباءً أم سار لغايته إلى البحر البعيد . تثب الحياة
الغضة من عينيك ، تسيل على صدرك ، تتدفق من على جسدك

وأنت لا تشعرين . وكنت أنهل من معينها الصافي فأجد فيه
نشوة لم أجدها من عتيق الخمر . . . وأنت — لشقائي —
لا تشعرين . فليس أكبر الألم ألا يشعر الحبيب بألمك ، بل ألا
يشعر بسعادتك . . .



ما من مرة احتضنتك بين ذراعي إلا شعرت بقسوة الموت
وظلمه . هذا الجسد الغض المتألق ، تتفجر منه الحياة ، يصبح
يوماً أبخرة عفنة وعظاماً نخرة . .



ألبستها العاملة أمام المرأة كل ما لديها من معاطف واحداً بعد
واحد ، فإذا بجمالها يطفئ على التغيير والتبديل ، وتبدو لها في كل
معطف فتنة جديدة . .

وددت لو استطعت أن أشتريها لك جميعاً . .

عادت إلى المعطف الأزرق ، وجربته مرة أخرى ، ودار
جسدها أمام المرأة ، وجهها ساكن ونظراتها ثابتة على توأمها . .
« رفقا بجيديدك يا فتاتي ! » ثم خلعت ، وعادت إلى بقية المعاطف

قلبستها كلها واحداً بعد واحد ، ثم أشارت إلى المعطف الأزرق
وقالت متراخية :

— هذا !

وهكذا نشاء الصدف ألا يتعلق ذوقك إلا بأغلاها !
— تريثي ! إذا لم يعجبك هذا المعطف فغيره كثير . تعالى
أريك متاجر أخرى .

لمسته بطرف إصبعها وقالت :

— أقضى به هذا الموسم ، وفي العام القادم أشتري غيره . .
كم وددت لو أنك قلت : « تشتري لي أنت غيره . . »
دعوت الله أن يقسم لي شراءه ، كما يدعو السقيم ربه أن يمن
عليه بالشفاء . .

كنت معك في أحضان الرذيلة من أتقى الناس ، لا تذوق
شفتاي الحمر ، وما بيني وبين الله عامر . .
أما الآن ، بعد اختفائك ، فقد سكنت إلى الحمر ، لا لأنساك
بل لأقوى على جبر الماضي إلى الحاضر ، لأعيش معك من
جديد . فانا اليوم سكير صالح مطرود من رحمة الله . . .



لقيتك ذات يوم ، على غير ميعاد ، فى منعطف طريق .
أغلب الظن أنك تسكنين قريباً منه ، وأنت خرجت عجلي لأمر .
كنت عاطلة من الزينة ، غير مسرحة الشعر ، مهملّة الملابس ، على
كتفيك معطف لعله معطف أخيك ، وفى يدك حقيبة لعلها حقيبة
خالتك . كنت لا تشعرين بنظراتى تعانقك من بعيد وأنا واقف
أتردد بين لذة اللقاء وراحة التشفى . . هذه التى أسرتنى مضاعة
بين الناس لا يشعر بها أحد ، ملكة نزعّت عن عرشها ! هذا هو
الطير المحلق يهبط على الأرض . أين جمال جناحيه وهو صافٍ
فى السماء ، من مهزلة اضطرابه وهو يحجل ويقفز ؟ !

ولما ذهبت إلى عشنا ، كنت أهدأ نفساً . حسبتهنى أشد قوة
على التخلص من سيطرتك ، ولكنك ما كدت تحتازين الباب
حتى هتف قايى : « هى والله ؟ ! »

كونى ما شئت ، ليمسخ الإهمال صورتك ، ليقس الضنا على
محيائك ، بل فليشوئك الزمن الذى لا يرحم ، فأنت أنت عندى .
لأنت آخر علمى وذوقى ومنتهى تجربتى . لقد كملت بك حياتى
وتم وجودى ، ولن أزيد بعدك شيئاً . حتى خيانتك لم يزد

بها علمي . هي تجربة أصبحت بعدها أكثر فهما لألم الخلق ،
وأشد سخرية من ألم الخلق . فهذا العطف الذي أبدله باليمين ،
تسترده سخرיתי باليسار . .



ولكن صبراً ! سيأتي اليوم الذي أنساك فيه . . حين يشيب
شعري وتتساقط أسناني ، وتنطفئ عيني . حين يحتضني الفراش
فلا أقوى على التخلص من ضمته ، وأستسلم إليه مضطراً وأستريح .
حين أفلح أخيراً في جرّ رجليّ جراً لأبحث عن الشمس ، محدقاً
في الناس ، وهم حولي ، تحديق المشنوق في جلاديه . حين لا أستطيع
أن أرى شيئاً ، إذ يكون شبح الموت واقفاً أمامي أعد أنفاسه قبل
أن يعد هو أنفاسي . .

عندئذ سأنساك ! فليس أقوى من ذكراك عندي سوى
الموت . . .

ولكن ألا من يخبرني عندئذ كيف أمسيت ؟ وكيف مرت
عليك السنون ؟ . . .



هذه الخلوفات المنتشرة في الطرق ، هاربة من الدور تارة ،
هاربة إليها تارة أخرى . .

هذه الخثالة المتوسدة أرصفة المسالك . .

هؤلاء الباعة الجوالون في الزحام ، بعيدين بأنفسهم عن الزحام
كالأرواح الضالة . .

كلهم ينطق بالقدم والدوام . ما حلول جيل منهم محل جيل
إلا كالثعبان يبدل جلداً بجلد . . .

هكذا كنت أراهم .. أما بعدك فهم لدى الآن سيّاح يهبطون
بلداً غريباً . وجوههم بلهاء في جهلها ، نظرتهم تائهة لا تستقر ،
ولا تقوى أرواحهم المهاجرة أن تقول عن شيء : « هذا لي ! »
كل هذا لأنهم لم يسعدوا يا حبيبتى برؤيتك



عندما كنت أخرج معك في هدأة الليل ، كنت أشعر أننا
وحدنا في هذا العالم ! تناسطنا الأفلاك والنجوم ، نسينا الليل ،
نسينا الناس .

وكان في نسيانها أكبر اللذة والسعادة .
أما اليوم ، بعد اختفائك ، فأسير والأفلاك والنجوم لم تتغير ،

والليل مغمض الطرف ، والناس هم هم ..
فأجد في نسيانها أكبر الألم والعذاب ...

ألف ألف فتاة مثلك عاشت فلمعت عيناها لمعان عينيك ،
وافترت شففتها عن مثل بارق ثغرك ، ثم طواهن الموت واندثرن
في التراب . قبلة واحدة منك لى كانت تكفى لبعث هؤلاء الموتى
الجانعات للحب بعد طول الرقاد .. فى قبلك لهيب ألف ألف
ثغر ظامى .. أصبحت من أجلك أحب الموتى مثل حبي للأحياء ..

وأغرب ما أعجب له أننى لا أسأل عن سبب اختفائك . وهل
يستطيع من عاش معك معدوم المنطق أن يعود فيتفهم العلل
والأسباب ؟ سأسأل عن السبب حينما يهدأ قلبي .. إذاً فلن
أسأل ما حيت . وإذا مات العالم معتزاً بعلمه — فسأموت أنا
معتزاً بجهلى ...

قرأت بحثاً كتبه شيخ من شيوخ الدين يعتمد فيه على

المنطق العقلي ليثبت أن الإنسان مسير لا محير . . فما اقتنعت
وما فهمت أوله من آخره . .

وتجيئين أنت ، أيتها الفتاة الغريرة ، فتكفيني نظرة واحدة
من عينيك لأؤمن بالقدر وبالجبر . . لأنني ألغيت معك منطقي
وعقلي ، وقنعت بالروح فأمنت .

لجأت إلى الكتب المقدسة الطاهرة أستنبطها : أيجيب الرحمن
دعوة العاصي ؟ فإني أريد إذا ما وقفت بين يدي الديان أن أسأله ،
قبل أن يغفر لي ذنوبي ، أن يغفر لك ذنبك . .

العالم مضطرب ، والمدافع تقصف ، والدماء تسيل . الدور
تخربت ، والنساء ترملت ، والأرض أمنا العجوز في اللهيب ...
فماذا يكون شقائي باختفائك مع كل هذه الآلام ؟ .. أأصرخ :
ليخرب العالم ما دمت أنا غير سعيد ؟ لا ، وألف مرة لا ، بل
أدعو الله أن يعيد السلام حتى تنعمي يا حبيبتي أني كنت
بشبابك في ظلاله ، وإن حرمني هذا السلام لذتي الأخيرة . .
لذة التشفي !

في المساء أقول : الفرار الفرار يا نفس . عبثاً حاولت
الاستقرار والاطمئنان للخلو والعدم . من يلومك بعد أن ذقت
معها طعم الوجود ؟ عودي . ارجعي أيتها النفس الفطيم إلى
ظلامك وأوهامك ، فلست والله تدرين بعد اليوم إذ تطوف بك
أشباح السعادة : أهى ذكريات الماضي أم آمال المستقبل ؟
وفي الصباح أنتفض على بسمّة الفجر ونشوة الطير — أسمعها
تقول : « أنت يا هذا الذي سعدت بالحب . قم ! إنما العيد
لك ! » مهلاً أيها الطير ! إنك تعيش ملء لحظتك للحظتك ،
بيد أن نفسى تتوقع عند الصباح قدوم المساء . . .

ودعت القاهرة عهد السلام ، فأطفت أنوارها ، وفاضت كالقندح
أترعته يد مرتعشة لسكير زائف البصر . . واكتظت طرقاتها
بأغراب ومهاجرين ونازحين من ملل ونحل شتى ، فلم يبق موضع
لقدم في ترام أو في سيارة ، أو في ملهى . رأيت الكثيرين في هذا
الزحام كالأسرى ، على وجوههم علامات التأفف والكرب
والاختناق ، يودون الخلاص . فلا شيء يضيق به الإنسان

ضيقة بقرب أخيه الإنسان .. أما أنت فكنت في الزحام كالسمكة
 في الماء ، تطبق عليك الجموع ثم تنكشف وتطبق وأنت ناعمة
 البال قريرة العين ، بل كنت أجمل ما تكونين وأنت رافعة
 الرأس في الزحام ، تتلاطم أمواج البشر حول منارتك . ما سمعتك
 تشتكين أو تتأففين .. ما زاد تلفتك ولا ضجرت نظرتك ؛
 بل كنت مرحة كأنك في مهرجان .. وكما رأيتك سعيدة
 بالحياة رأيت الحياة سعيدة بك ..

يوم أن خرجنا من متجر الأزياء قبيل الغروب وأنت
 تقولين :

— ... أعجبني الثوب لولا أزراره ..

وهنا دوت صفارة الإنذار ، وهاج الخلق وماج . هل تذكرين
 كيف رأينا لابسى الجلابيب والخفاة هازئين ، والموسرين
 هاربين ؟ ! رأينا شبانا في شرخ الصبا غير عابئين ، وشيوخا
 على حافة القبر زایلهم كساحهم فهم يجرون إلى الخبايا نشطين ..
 وقفت مكانك وتلفت يمنية ويسرة ثم قلت :

— أنا خائفة !

أخذتك إلى أول بناء لقيناه ، وجلسنا مع بوابه النوبي كأن
ثلاثتنا من أسرة واحدة لم تفترق طول الحياة ..

ولما ضجت السماء بأزيز الطائرات ، واشتعلت بلهيب المدافع
وانفجار القنابل .. ولما اهتزت النوافذ والأبواب ، وعلا الصراخ ،
امتنع لونك ، وعرقت يدك ، وطال صمتك ..

ثم هتفت الصفارة بالأمان ، فقممت واقفة ، ووضعت ذراعك
في ذراعى وخرجنا ، وكان أول حديثك :

— ... لأن طرف الزرّ الأوسط على الكم اليمين شبه
مخدوش ...

تنقلت بعدك بين نساء كثيرات . لم أزد مع كل منهن عن
لقاء واحد ، وفيهن من هى أجمل منك وأشدّ سحراً ، ثم أفر ولا
أعود . لماذا ؟ للحسرة ؟ لا . فأنا أعلم أن اختفاءك قد أذابك
في ييم الحياة وهيئات أن تعودى ، ولو عدت لعدت غير ما كنت ..
الغيرة . هل تخشى روحى أن تكون كل امرأة جديدة بين ذراعى
رجلاً جديداً أنت إذ ذاك بين ذراعيه . قد يكون هذا ، ولكن
هل لى أن أصارحك أننى أفرّ ضناً بنفسى على غيرك ؟ فهذا

الذى تحسبينه فى انحاء هو غاية الكبرياء والاعزاز .. هو الحب !

أحببت قبلك اثنتين : واحدة ثم أخرى . كم أقسمت صادقاً
بين أيديهما أحرّ الإيمان على الوفاء والإخلاص حتى الموت . .
ثم افترقنا . . وهدأت . . ولم أعد أذكر شيئاً . . غير أنى كنت
فى غيبوبة النشوة أنادى الأولى بين ذراعى الثانية ، وكم فاجأت
شفقى تتمتان باسم دفين وأنت بين ذراعى لا تشعرين . . فهل
الذى جرى عليهما سيجرى عليك أنت أيضاً ؟ إن الزمن يلح
على بالإخلاص فأعصيه ، والمنطق يسخر منى فأسخر منه ، والحياة
تنسب بتلايىي فأتملص من قبضتها وأفر . ولكن هل أقوى على
مغالبة كل هؤلاء الخصوم مجتمعين ؟ سأنساك ! سأنساك ! ولكن
هيات لى أن أنسى أننى نسيته . . .

الآن بعد اختفائك ، أقول وأنا وجل : هل أحببتها لأنها
ذكرتنى بمن مضى ؟ أفى نظرتك أم فى صوتك أم فى سذاجتك
لقيت من خلت أننى دفنته ؟ ولكن لا ! ما فات مات . مات
إلى الأبد . ولم نخدع أنفسنا ؟ الذى كرى إنما تجر من القبر هيكلا

نخرأ بالياً في لون أغبر وكفن حائل، أجوف قد نزع منه الكلام.
يوميء فلا نفهم، ونشير فلا يفطن. عَدَمٌ متحجر، قائم ونحن
نضطرب وندور فلا نعرف إقباله من إدباره. إن بصيصاً من نور
خافت ينبعث من حي، كاسفٌ جميع الشمس الغاربة ! الآن
أومن أنتى أحبيت مَنْ سبقتك لأنهما كانتا تشبهانك أنت ...

يا رب ! يا أرحم الراحمين ، وسعت رحمتك حنق المهزومين ،
وثورة المحرومين وقد تاهوا في ملكوتك . ما أجهلهم وإن كانوا
مؤمنين !

ووسعت رحمتك من أضلته بصيرته ، فجحد ، وأنكر ، وكفر
كفر الأعمى بالنور ...

ووسعت رحمتك من ركبته الجهل ، وساقته الحماقة فتعالى وأبى
السجود آنفاً من أن يرسف فيما توهم من قيود .

بل وسعت رحمتك من أغدقت عليه من نعمائك ، فجذف
وتمرد ...

لا أقول لك مثل قولهم : لماذا خلقت الشر ؟ لماذا برأت
الرزيلة ؟ ولكني أسألك يا إلهي لماذا جعلت الحق على النفس

ثقيلاً ، والباطل هيناً . لماذا خلقت الفضيلة مملّة والرذيلة فاتنة ؟
لماذا خلقت الحب روحاً هائمة لا تخضع لعرف أو لقانون : طيراً
لا يحط إلا ليحوم ؟ يفزّعه الأمن والسلم والدوام ، والحياة عنده
وجد ووله وهيام .

لا يستقر ولا يهدأ ، لا تزيده العبرة إلا استهتاراً ،
ولا النصيحة إلا عناداً . . لم جعلت السعادة سراباً ، والوفاء محالاً ،
والنيات مقعّدة ، والنسيان عداء ؟

أنت مطلع على الضمائر والقلوب ، فاعف اللهم ممن تشاقلت
قدماء في الطريق السوى فلم يقو على اللحاق بالقافلة تنفّص
عرقاً ومللاً . . . وانحرف إلى البيداء ضالاً يفتاح النجوم ، وكل
زاده نجواه لنفسه :

— ما ظنك بالله العليّ القدير ، الرؤوف الكريم !

أجوس بعدك خلال القاهرة فأعود من أحيائها الأوربية
بقلب فاتر كليلاً ، وأثر بين المرّ والحلو ، كفقير يرتد عن زيارة
ابنه الغني العاق وإن عزّ على قلب أبيه . . . يضع مني شبحك

في الأوبرا وجروبي ، وبين شبرد والكونتنتال ، فإذا قادتنى
 قدماى إلى سيدنا الحسين ، ومررت تحت البوابات الهرمة ،
 ووقفت أمام الجوامع العتيقة ، هصر الشوق قلبى هصرا . .
 فأنت عندى هذا التاريخ . . .

وإذا ما فاض بى الحنين إليك أبكر إلى قصر النيل مترقباً
 جموع الفلاحات قادمات من الريف ، على رؤوسهن سلال الخضر ،
 ثيابهن سود ، على أرجلهن الطين ، معتدلات القوام ، فى وجوههن
 المجهدة عيون صابرة . لا ينقطع تدافعهن ، ولا تنقضى ثرثرتهن . .
 عندئذ ألقاك ... فأنت عندى هذا الوطن ...

ويغلبنى الوله على أمرى يوم « طلوع القرافة » ، حين أتبع بنظرى
 عربات الفلاحين البطيئة تحمل الأمرة كلها رجالا ونساء ،
 شيوخاً وأطفالا ، أمامهم « السحارة » المنحدرة من قبور الفراعنة ،
 يهجرون مدينة الأحياء ليستقبلوا العيد فى مدينة الأموات .
 فأنت عندى هذا العيد !



الآن أذكر ، والآن فهمت . .
 فى صباح اليوم الذى اختفيت فيه ، كنت أجول فى خان الخليلي .

فنادتني من سجنها الزجاجي مسبحة جميلة وأشارت إلى أن
خذني معك .

تناولتها بود ، وانعقدت بيننا منذ اللمسة الأولى أو اصر صداقة
وثقت أنها ستدوم ، تساقط حباتها كقطرات الماء على الغدير ،
حديثها الخافت إلى : عن الألفة بين القلوب في عالم الوحدة ، عن
الطمانينة في اللقاء المقسوم وإن طال الغياب ، عن الوجل من
الفراق المحتوم رغم اللقاء . .

عدت بها إلى عشنا ، فلم أكّد أدخله حتى انقطع من حيث
لا أدرى خيطها وتناثرت حباتها . أهو نذير أم شيطان يغار ؟
جشوت على الأرض ، وجمعت حباتها ، وعددتها فإذاها تنقص حبة .
دسست يدي ، ونبشت بأظافري تحت المقاعد والسجاد ، ولكن
عبثاً ! فخرنت وأسفت .

قد تسألين : أكل هذا العناء من أجل حبة واحدة صغيرة ،
وفي يدك منها عشرات ؟

فأجيبك : هكذا مسبحتي ! لا يحيا جمالها إلا بهذه الحبة
الواحدة الصغيرة . . التأثية !

مكتبة مجاهد

لصاحبها: زكي محمد عاهد

بشارع الصناعات بالازهر

إقرأ

المؤلفات التي ظهرت في السنة الثانية لهذه السلسلة

- | | | |
|----|----------------------------|--|
| ١٣ | جبل بئنة | (أدب) للاستاذ عباس محمود العقاد |
| ١٤ | من يوميات فتاة عصرية (قصة) | للاستاذ حسين شوقي |
| ١٥ | بايرون | (ترجمة) للسيدة أمينة السعيد |
| ١٦ | دمشق | (تاريخ) للاستاذ محمد كرد علي |
| ١٧ | شيكسبير | (أدب) }
للاستاذ محمد فريد أبو حديد
والأستاذ زكي نجيب محمود
والأستاذ أحمد خاكي |
| ١٨ | قنديل أم هاشم | (قصة) للاستاذ يحيى حـ————— في |



تصدرها

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



ظہر حدیثا

المرحوم أحمد محمد جاد المولى بك	انصاف عثمان	۲۰
للاستاذ حسن عبد السلام	الأغذية	۲۵
للاستاذ محمد عاطف البرقوقي	تبسيط الاسلحي (طبعة ثالثة)	۴۰
للآنسة بنت الشاطى	سيّد العزبة (قصة امرأة خاطئة)	۲۰
للأميرة شيوه كار	حيران	۲۰
للاستاذ أحمد الصاوى محمد	بايرون	۲۵
تعريب محمد عوض ابراهيم بك	كما تهواه - لشيكسبير	۱۵
للدكتور ابراهيم أمين الشواربى	حافظ الشيرازى	۱۲۵
للاستاذ فؤاد فرج	القاهرة - الجزء الثانى	۵۰



ملتزم الطبع والنشر
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

سلسلة من القصص الراقية والأدب الرفيع

للدكتور طه حسين بك	دعاء الكروان	١٥
» » » »	الحب الضائع	١٨
» » » »	لحظات (جزء ثان)	١٨
» » » »	صوت باريس » »	١٨
للاميرة شيوه كار	حيرات	٢٠
للاستاذ على أدهم	الخطايا السبع	٢٥
» » » »	تلاقى الأكفاء	٢٠
للاستاذ عبد الرحمن صدقي	ألوان من الحب	٢٠
للاستاذ محمود تيمور	بنت الشيطان	٢٠
للاستاذ أحمد الصاوي محمد	الموجة العذراء	٢٠
» » » »	حياة قلب	٢٠
» » » »	رجال ونساء (جزء ان)	٥٠
» » » »	شباب الفولجا	٢٠
» » » »	العاصية	٢٠
للبيدة أمينة السعيد	أوراق الحريف	١٨
للاستاذ ابراهيم عبدالقادر المازني	ابراهيم الثاني	٢٥



ملتزم الطبع والذخيرة

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

سلسلة من التراجم والدراسات

للاستاذ كريم ثابت	الملك فؤاد	٦٠
للاستاذ فؤاد صروف	روزفلت	٣٠
للاستاذ عباس محمود العقاد	عبرية الصديق	٢٥
» » » »	عبرية الامام	٢٥
» » » »	الصديقة بنت الصديق	٢٥
للاستاذ محمد فريد أبو حديد	الملك الضليل (امرؤ القيس)	٢٥
للاستاذ احمد الصاوى محمد	بلزاك	٢٥
» » » »	شيللى	٢٥
» » » »	بايرون	٢٥



ملتزم الطبع والنشر
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

سلسلة من المؤلفات العلمية

الأغذية	٢٥	الاستاذ حسن عبد السلام
ذخيرة العطاش	٢٥	» » » »
الصناعات الكيماوية في مصر	١٥	» » » »
العلم في الحرب	٢٠	الاستاذ أمين ابراهيم كحيل
الفارات الجوية والغازات الحربية	١٢	الاستاذ محمد محمد فياض
تبسيط اللاسلكي	٤٠	الاستاذ محمد عاطف البرقوقي
المهندس الصغير	٧	» » » »
النقل البري للاطفال	٥	» » » »
النقل البحري للاطفال	٥	» » » »



ملتزم الطبع والنشر
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

سلسلة المدن المصرية

بقلم الأستاذ

فؤاد فرج المهندس بالبلديات

الرقم

١٨

(١) الاسكندرية

(٢) بور سعيد

(٣) السويس

(٤) الاسماعيلية

(٥) شبه جزيرة سيناء

في مجلد واحد عنوانه :
منطقة قنال السويس
ومدن القنال

(٦) القاهرة — الجزء الأول

(٧) القاهرة — الجزء الثاني

مجموعة فنية تاريخية . مئات الصور والخرائط النادرة . تحف جميلة
تزدان بها المكتبة العربية . آثار خالدة تعز بها القومية الوطنية



ماتزم الطبع والنشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مكتبة الأطفال

بقلم الأستاذ كامل كيلافي

مجموعة نفيسة نادرة تحتوي على أكثر من
أربعين كتاباً مصوراً ، مطبوعة طبعاً أنيقاً ،
شهد لها رجال التربية والتعليم بأنها
« تحجب القراءة إلى كل ناشئ »



ملتزم الطبع والنشر
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

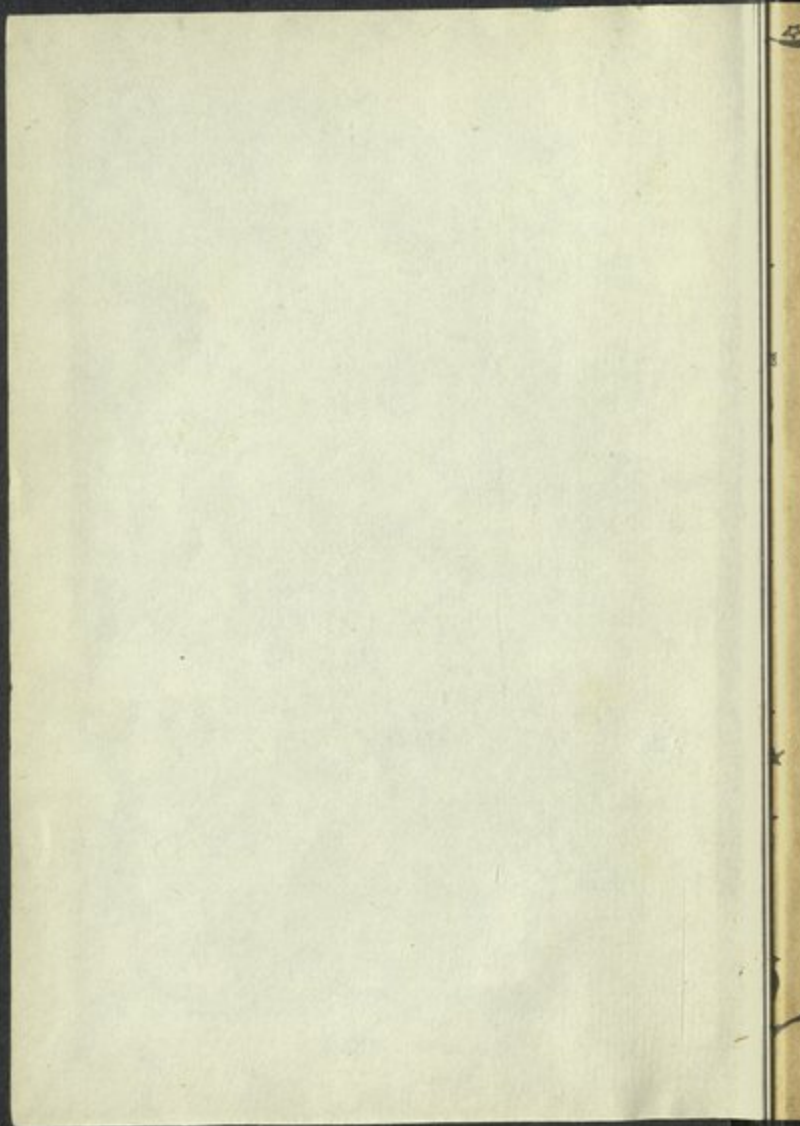


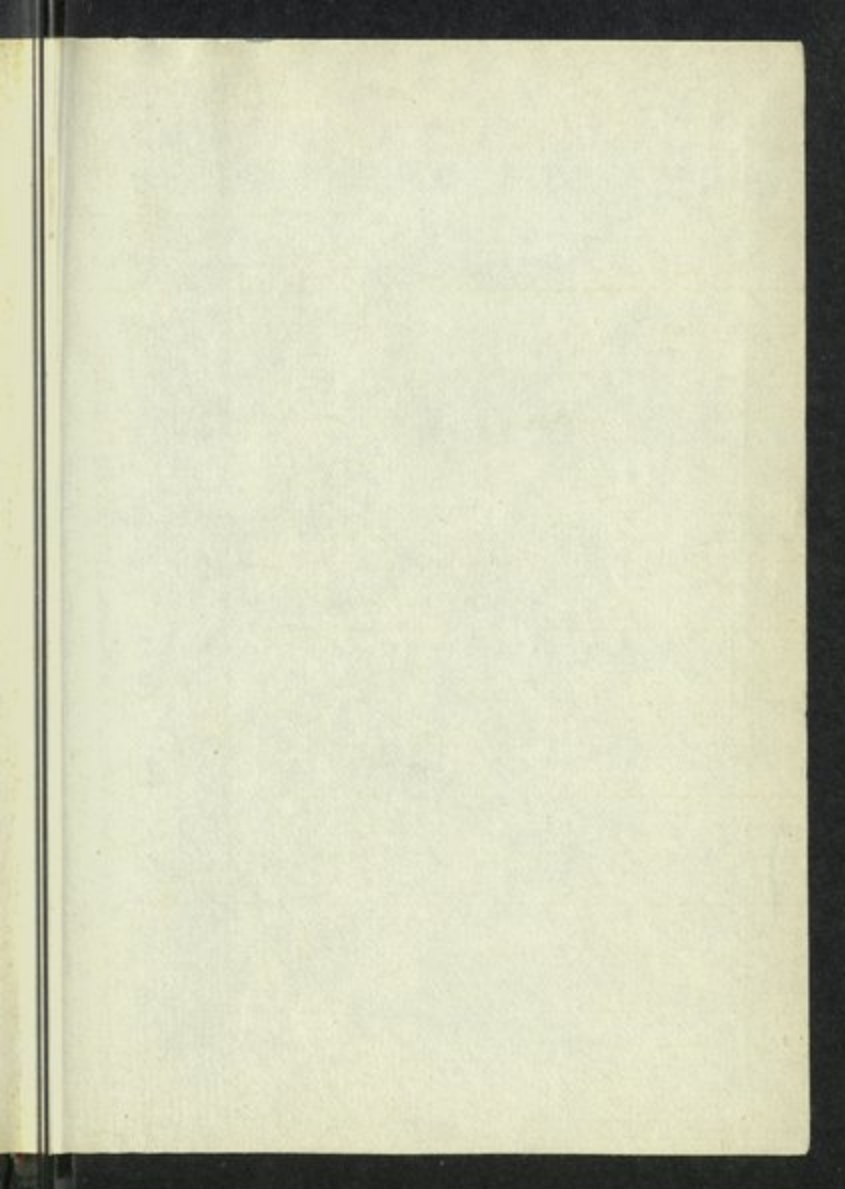
رمز

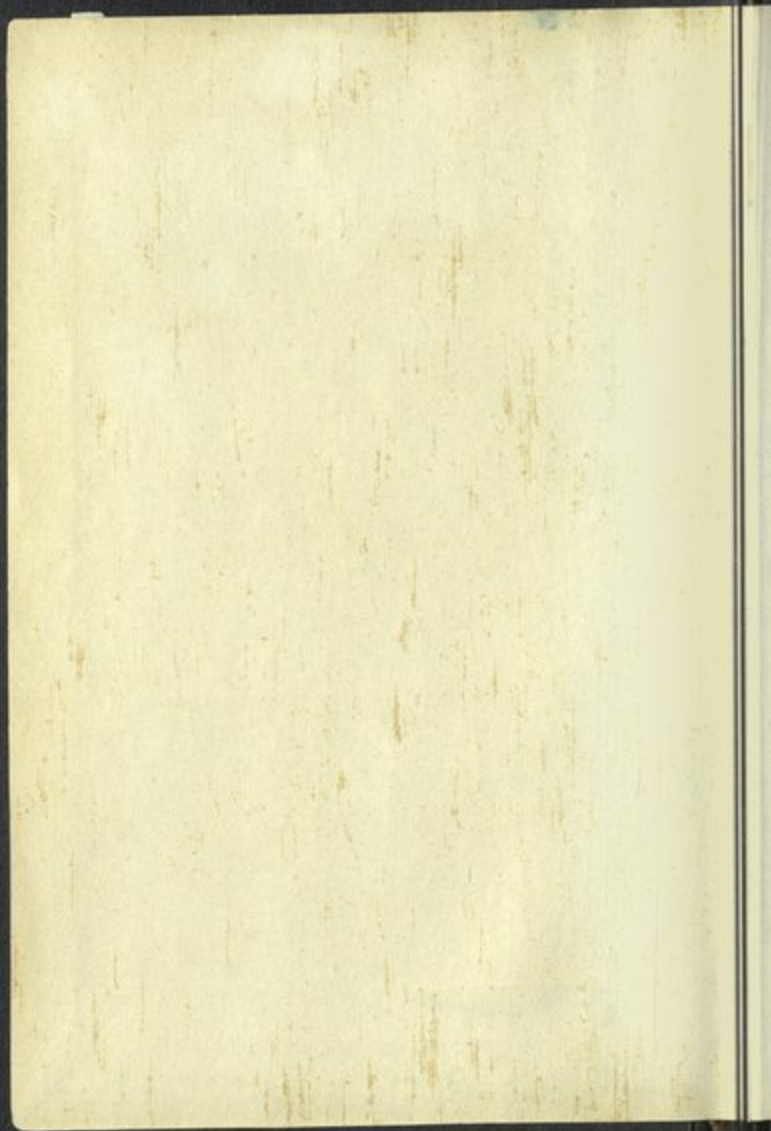
الطباعة الأنيقة
والمؤلفات القيِّمة
التي تمتاز على الدوام
بإستحسان جمهور القراء
في جميع الأقطار العربية

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

المحل الرئيسي بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة
فرع الاسكندرية : ٢ ميدان محمد علي
وكالة فلسطين وشرق الأردن : شارع مأمن الله بالقدس
متمهدون في بيروت ودمشق وبغداد







DATE DUE



حکم: یحییٰ
فتدیل ام هاشم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01037795

